# الباب السادس

## ﴿حكم التاريخ﴾

أما المأمون فخلط فسلط الناس على نفسه.

وأما أبي المعتصم فإنه رجل حرب ولم يكن له بصر بالكلام. وأما أخي الواثق فإنه استحق ما قيل فيه.

الخليفة المتوكل

أساء المأمون إلى دولته وأسرته يوم آثر الفرس على العرب، وأساء إلى دولته وسيرته يوم تصدى لقهر أهل السنة، وخرع على المبادئ التي طالما نادى بها من حرية الفكر. وأثار. الخصام بين الدولة والرعية وأتبعه خلفاؤه فآثروا الترك على الفرس وازدادوا بعدًا من العرب واستهتارًا بالمبدأين اللذين صيرا الدعوة العباسية دولة عالمية. وهما العمل الصادق بالدين وإعادة التوازن بين عناصر الأمة بالتمكين للوحدة من خلال التعدد والتنوع. بل قلبوا الأشياء فصيروا العرب في دولتهم غرباء. وفشا اللهو وشاع الجهل وانقطاع الصلة بين الخلفاء والرعية. فمشى بنو العباس إلى مصايرهم معصوبي العيون كالمسحرين.

ولما ثاب المتوكل إلى الجماعة كان رجوعه بعد الأوان، بزمان، يعدل حياة جيل كامل، أحدث فيه الانحراف المزدوج آثاره. فتهدمت الجسور للعودة إلى العرب وإن لاذ الخليفة بالسنة وإمامها.. فدعاه إلى القصر فلبى قيامًا بواجب الطاعة لولي الأمر. فهذا درس يعلمه للمسلمين. لكنه أبى أن يلتحق بالحاشية فنجا من النعيم المقيم في جوار الخليفة، كمثل ما ثبت في محنة العذاب البئيس من سابقيه، ورجع إلى بيته يراجع المسند ويعكف على تعليمه حتى إذا دخلت السنة الثامنة والسبعون من عمره لم يكتب له أن تطول أيامه.

ومصير الدولة إلى أجلها المقضي، والمتوكل إلى أحمد، وصعود روح أحمد إلى الرفيق، الأعلى فصلان في الباب الأخير.

# الفصل الأول

# حكم التاريخ

"لو شهدت الخضر التي أنتجها في "سالونا"

لما تحدثت إلي عن الإمبراطورية"

الإمبراطور دقلديانوس

- الحكم في موقف الإمام
- الحكم في مواقف المأمون والمعتصم والواثق
- الحكم في الامتحان
- الحكم في المتوكل

الأحكام في قضايا التاريخ الكبرى يصدرها التاريخ وينفذها من خلال أجياله، وهو يقوم العوج ليرجع الأمور إلى الجادة، ويعلو بالأمم ويهبط ليعيد الموازين إلى الاعتدال. وصفحات التاريخ تتكرر أو تتغير لأن غايته هي العدالة. وطريقها الاستقامة – وبهما يربط الخالق سبحانه وتعالى أكوانه، ويصل صلاح الدنيا بعدل السماء.

وقوانين الطبيعة تقول: "لكل فعل رد فعل مضاد له في الاتجاه ومساور له في المقدار". وقديمًا قال الشاعر العربي:

* والهر بالإنسان دوارى *

وفي القرن الماضي يقول فيكتور هيجو: "ربما تعرف الأشياء ما تصنع لكن الرجال – بيقين – لا يعرفون ما يصنعون" وفي هذا القرن يقول جاك بانفيل: "عندما ينظر إلى التاريخ في مجموعه تظهر الدقة الصارمة التي تتابع عليها الحوادث وتتناتج".

والتاريخ قد يبطئ الخطو لكنه لا يتوقف. كالعدالة قد تكون عرجاء لكنها تصل.. قد تستغرق الخطوة الواحدة قرنًا أو أكثر، لكنها أمر مقضي. وكثيرًا ما تنبت الحبة الواحدة مائة حبة، في جيلها أو في غيره. أو تدفع أجيال أثمان الخطايا التي تفارقها أجيال سواها، فيأكل الآباء الحصرم (أول العنب) والأبناء يضرسون، ويتحكم الموتى في الأحياء من بعدهم.

والتاريخ يعلن قانونه بكل اللغات، في كل الحضارات، من اليونانية إلى الرومانية إلى العربية إلى الإمبراطوريات الحديثة – وكثيرًا ما تتلاحق ردود الأفعال في تتابع وتوافق بشدهان الأذهان. كأن الكرة ترتد للاعب. أو العملة الواحدة تدير وجهها الآخر! فإذا تراخى الزمان لم يتخلف التوافق أو التطابق.

ولقد يضع التاريخ المرايا في موقع العبرة وكأنها عيون باصرة أو شفاه ساخرة، ليظهر الناس على ما يصنعونه، أو ما يصنع بهم، مع سخرية الأقدار منهم. كهيئة الألمان يوم تراءى الجمعان من صناع التاريخ المعاصر في سنة ١٨٧١ لإعلان قيام الإمبراطورية الألمانية في بهو (المرايا) بقصر فرساي، على مشارف العاصمة الفرنسية المنهزمة. ويوم تراءى أمامها الألمان بعد نصف قرن في سنة ١٩١٩، مع مندوبين عن سبع عشرة دولة يوقعون إعلان انهيار هذه الإمبراطورية الألمانية.

ومن قبل ذلك بقرون ثلاثة لم تكن إليزابيث الأولى ملكة إنجلترا تتصور – إذ يقصف جلادها رأس ماري ستيوارت ملكة اسكتلندا سنة ١٥٨٧ – أن الذي سيجلس بعد إليزابيث مباشرة على عرش إنجلترا بعد نحو نصف قرن من حكمها (١٥٥٨ – ١٦٠٣) هو جيمس الأول ابن ماري ستيوارت نفسها... قادمًا من اسكتلندا.

وفي ١٨٠٥ تلاقت في (معركة البراطرة) كل جيوش أوربة – وقد أجمل وصفها شوقي في قصيدته مخاطبًا نابليون:

يـــوم أو ســـترلتنز كـــان الملتقـــى  واجتمـــاع النســـر بالمستنســـرين
صـــدت شـــاه الـــروس والنمســـا معًـــا  مـــن رأي شـــاهين صـــيدًا فـــي كمـــين

لكن التاريخ لم يمهل صائد الشاهين إلا عشر سنين، فأنهى معاركه الستين في ووترلو سنة ١٨١٥، ليسير النسر الذي صاد المستنسرين على قدميه إلى القفص في البارجة (بلرفون) رجاء النجاة من أيدي هذين الإمبراطورين، ثم ينتقل من القفص الصغير إلى القصص الكبير في سنت هيلين.

* * *

والذي شهدته العواصم الإسلامية قبل ذلك بألف عام لم يكن فيه عجب. فما هو إلا العملة الرائجة، أو اللغة الدارجة، بين الحقب:

المأمون يشهر السيف ليقتل أحمد بن حنبل فإذا المأمون يقتله الله وهو ينتظره. وإذا أحمد يحيا. بل يتعاقب عليه خليفتان معتديان (المعتصم والواثق) فيموتان، والأول أقوى أهل الأرض بدنًا، والثاني أنضرهم شبابًا ليقضي خلفاؤهم أربعة قرون بعدهم يحملون أوزارهم على كواهل واهنة.

أما ذرية المأمون الذي وصى المعتصم بامتحان أحمد وهو يوصي له بالخلافة، فتلقى انتقام التاريخ على يد المعتصم نفسه، إذ يأمر المعتصم أتراكه بقتل العباس بن المأمون لينقطع دابر ذرية المأمون من سجل الحوادث.

وأما ذرية المعتصم، الذي عذب ابن حنبل فتبقى، لنلقى من انتقام التاريخ ما لم يعرف له نظائر التتابع أو التشابه أو فظاعة النكال، مع براعة الاستهلال! إذ يسهل النكال بأن يقتل الأتراك الذين جاء بهم المعتصم، المتوكل بن المعتصم! ويقتلونه بمؤامرة عليه مع ابنه!

وأما الواثق فيدفع ثمن خطاياه بمقتل ابنه المهتدي ابلله وهو خليفة على يد الأتراك كذلك. ثم تتابع المصارع على سنة القتل الذريع والموت من الجوع، وسمل العيون، وائتمار الأهل بالأهل والإفحاش في الرذائل. ذرية بعضها من بعض. لكنها كلها ذرية المعتصم! وما هي إلا غضبات السماء ولعنات الاستهتار تورث الأثرة والانطواء والاستخفاف بالمفاسد والهروب من التبعة.

وأما ابن أبي داؤد فستشهده بغداد: مسجونًا في جلده – أشل – والخليفة يطلب رأي أحمد بن حنبل في مصيره... وأحمد يعفو ويصفح.

وستشهد بغداد (باغر) التركي الذي قتل المتوكل، تملى له السماء، حتى إذا أخذته لم تقتله، فيقتله الجند أنفسهم.

بل تشهد خوائن الخلفاء رأس وزير قطعت، ومعها يد الوزير التي كتبت أمر القطع، محفوظين في سفط واحد! وعلى السفط تذكرة للناس يقول كاتبها: "إن هذه اليد هي التي قطعت هذه الرأس" (١٥٨).

---

(١٥٨) وفي معرض العبر التي يعتبر بها بنو أمية – هم الآخرون رءوس أخرى:

يقول عبد ا لملك بن عمير الليثي (رأيت في قصر الإمارة بالكوفة رأس الحسين بن علي بين يدي عبيد الله بن زياد علي ترس. ثم رأيت فيه رأس عبيد ا لله بن زياد بين يدي المختار بن عبيد. ثم رأيت رأس المختار بن عبيد بن يدي مصعب بن الزبير. ثم رأيت رأس مصعب بن الزبير بين يدي عبد الملك بن مروان. فحدثت بذلك عبد الملك بن مروان فتطير منه. وفارق مكانه).

وإنما عجلت السماء الجزاء على مقتل الحسين سيد الشهداء سنة ٦١ فتقل عبيد الله الذي أمر بالقتل. بل قتل قائد الجيش الذي قام بالقتل. ثم قتل المختار بن عبيد لعدم إخلاصه. ولما تطير عبد الملك كان يتصور

وستشهد فسطاط مصر القاضي ابن أبي الليث الذي أهان المحدثين في محنة خلق القرآن، وقد عاد إلى مصر قاض من المحدثين الذين أرسلهم إلى الحبس في بغداد – الحارث ابن مسكين – فيأمر بجلده كل يوم عشرين سوطًا حتى يسدد ديونه، وقد أمر الخليفة أن يطاف به في الأسواق ويضرب وتحلق لحيته.

وستشهد مصر – القاهرة – ابن مخلوف الذي قضى بحبس ابن تيمية، يطلب فيه رأي ابن تيمية فيعفو ويصفح.

---

مصرع مصعب على يد جنده. ويتذكر لغة التاريخ الذي جاء بهذه الرؤوس من ميادين القتال المتنازحة إلى هذه الساحة الصغيرة في هذه الفترة القصيرة – نحو عشر سنين – لعل الناس يتفكرون! إذ تبصرها أعينهم! أما الواقعة التي كان يجدر أن يتوقعها عبد الملك فتجيء بعد نصف قرن في سنة ١٣٢ عند تسيل في وليمة واحدة دماء سبعين من حفدته وذويه فلا يبقى بنو العباس على ظهر الأرض أمويًا إلا من هرب (ليصبح الملك ثابت الأساس للبهاليل من بني العباس) كما يقول شاعر المذبحة: ومن الضحايا حفيدة سليمان بن هشام بن عبد الملك. فاجأه القدر إلى جوار السفاح عندما دخل سديف الشاعر فرآه فأنشد السفاح:

لا يغرنك ما ترى من رجال  إن تحت الضلوع داء دويا

فسقطت رأس سليمان بين رءوس الكثيرين من الأمويين.

## الحكم في موقف الإمام:

كان إمام المسلمين في موقفه يغلق أبواب الشر والخطر، ويجنب الأمة أن تتصدع في عقيدتها.. والإمامة رؤية واضحة لطريق العقيدة ومسيرة التاريخ. وبالرؤية الصادقة حمى الإمام أهل الإسلام من التردي في هاوية الشقاق حول آراء الرجال كما كتب على أمم أخرى في الماضي البعيد والقريب. وكما سيقع بعد قرون إذ تنقسم الكنائس [١٥٩] وتنشب الحروب وتسيل

---

(١٥٩) تقول الكنيسة الأرثوذوكسية المصرية: (إن الله ذات مثلثة الأقانيم الأب والابن والروح القدس – تجسد الابن من الروح القدس من مريم العذراء وصار هذا الجسد وحده ذاتية جوهرية وبهذا الاتحاد صار الابن المتجسد طبيعة واحدة من طبيعتين. وفي القرن الرابع انتشرت آراء أريوس وكان قسًا واسع الإطلاع من مدرسة اللاهوت في أنطاكية (أن أقنوم الابن غير مساو لإقنوم الأب في أزليته وأن يسوع الابن الأزلي مخلوق) فجرده بطريرك الإسكندرية فانتقل إلى فلسطين ثم أعيدت إليه رتبته ثم جرد من جديد.. وعقد مؤتمر نيقية سنة ٣٢٥ بحضور الإمبراطور قسطنطين فشجب المؤتمر آراء أريوس وأعلن مارطرس في المجمع العقيدة الملكية (الله واحد من جوهر أبيه.. وولد من مريم البتول وصلب.. ودفن ثم قام في اليوم الثالث وصعد إلى السماء وجلس عن يمين أبيه وهو مستعد للمجيء تارة أخرى للقضاء بين الأموات والأحياء. ونؤمن بروح القدس الواحد وروح الحق الذي يخرج من أبيه.. وبجماعة واحدة قدسية مسيحية جاثليقية).

وظلت آراء أريوس تنتشر وقاومها البابا أثناسيوس (٣٧٣) بطريرك الإسكندرية وطلب الإمبراطور تبرئة أريوس فاعترض الباب فنفاه الإمبراطور إلى تريف بفرنسا وأعاد أريوس إلى القسطنطينية.

وفي القرن الخامس ظهر نسطور (يقول إن للمسيح أقنومين. أحدهما إنساني والثاني إلهي وإن السيدة العذراء ليست والدة الإله بل والدة المسيح) وهذا يناقض قول الكنيسة الأرثوذوكسية (إن للمسيح أقنومًا واحدًا اتحد بالطبيعة الإنسانية وإن السيدة العذراء تدعى بحق والدة الإله) وانتصر أسقف أنطاكية لنسطور وجردهم بابا الإسكندرية كيرلس الرابع (٤٤٤). كما عارضت نسطور بطاركة روما وتابع كثير من المشارقة المسيحيين آراء نسطور. وهؤلاء هم النساطرة.

وفي القرن ذاته ظهر أفتيخوس. يقول: باختلاط طبيعة اللاهوت وطبيعة الناسوت في المسيح وامتزاجهما وصيرورتهما طبيعة واحدة (بمعنى أن طبيعة الناسوت تلاشت في طبيعة اللاهوت) وعقد مجمع أفسس (٤٤٩) فحرم بدعة أفتيخوس وعزل المؤتمر بطريرك القسطنطينية لكونه نسطوريًا وأمر الإمبراطور مارثيا نوس وزوجته بلخاريا بعقد مجمع خليقدونية سنة ٤٥١ وتدخل فيه الإمبراطور فحبس بابا الإسكندرية دسقورس. وفي مجمع خلقدونية ظهر الانشقاق بين الكنيسة في القسطنطينية وكنيسة الإسكندرية. وتتابعت المجامع مسكونية (عالمية) أو مكانية. وأمسى ملوك القسطنطينية يؤيدون عقيدة القسطنطينية فسميت الملكية أو الملكانية وهي عقيدة التثليث (أب وابن وروح قدس – كلها قديمة) وأصبح في العالم كنائس أرثوذوكسية في الإسكندرية رأيها هو الطبيعة الواحدة والمشيئة الواحدة وأرثوذوكسية بالقسطنطينية رأيها أن للأقنوم الثاني (الابن) طبيعتين ومشيئتين. وتابعتها في ذلك الكنيسة الكاثوليكية إذ انقسمت الإمبراطورية الرومانية إلى

دماء الملايين من جراء الخلافات بين أبناء الدين الواحد حول تعاليم الكنائس، أي آراء الرجال، لا حول تعاليم المسيح! فالمسيحية واحدة في الكتاب المقدس، وإنما الخلافات حول آراء الكنائس.

ومن الخلافات ما يدفع إلى الكفر.

لقد مال الإمبراطور قسطنطين إلى المسيحية واعتنقها أولاده ثم صارت دينًا للرومان واختلفت الكنائس حول طبيعة المسيح بين قائل إن الأب والابن من طبيعة واحدة – جوهر واحد – وقائل إنهما طبيعتان متشابهتان وتتابعت المجامع من عهد قسطنطين (٣٣٧) إلى عهد قسطنطينوس (٣٦١) ومن مجمع نيقية (٣٢٥) إلى جميمع نيقية (٣٢٥) إلى مجمع ساريكا (٣٤٧) إلى مجمع ميلانو سنة (٣٥٥) وتأرجحت مواقف القسيسين، بين الميل إلى المذهب والميل عنه، وفق ميل الإمبراطور إلى مذهب والميل عنه. فجعلت هذه الذبذبة جوليان بن قسطنطين يكفر بالمسيحية كلها – وهو أمير – ويفرض الوثنية على الدولة – وهو إمبراطور – بل يكتب بيده كتابًا ضد المسيحية يعلن فيه في ضراوة وعمى "لو صيرت كل واحد من أفراد الرعية أغنى من "ميداس" – الملك الأسطوري الذي يحيل كل ما يلمسه إلى ذهب – وجعلت كل مدينة من مملكتي أكبر من بابل، لما حسبت نفسي قد صنعت شيئًا إلا إذا أرجعتهم إلى عبادة الأوثان".

ومن الخلافات ما يقسم القارات:

لقد انقسمت الكنيسة الأرثوذكسية في مصر – وكنيسة القسطنطينية في أوروبا لاختلاف الملكانيين واليعاقبة قبل قرون من عصر أحمد بن حنبل.

وفي القرن الثامن للميلاد والثاني للهجرة – وهو القرن الذي ولد فيه أحمد وجميع ا لذين كانوا يروجون لنظرية خلق القرآن – انعقد مؤتمر بيزنطة (٧٥٤م – ١٢٤هـ) يحرم عبادة

---

إمبراطورية رومانية شرقية عاصمتها القسطنطينية وأخرى غربية عاصمتها رافنا في عهد الإمبراطورين أركاديوس وهونوريوس وما تزل الكنيسة تزيد التوحيد منذ تلك العصور.

وكان قساوسة العالم يحملان أعلام هذا الخلاف – والمؤتمرات المكانية أو المسكونية (العالمية) لا تتوقف وفيها المئات من قساوسة العالم، تتابع على مر الدهور. من مجتمع نيقية سنة ٣٢٥ إلى مجمع القسطنطينية إلى مجمع أفسس الأول سنة ٤٣١ إلى مجمع أفسس الثاني ٤٤٩ إلى مجمع خلقدونية سنة ٤٥١ إلى مجمع القسطنطينية سنة ٥٥٣ إلى مجمع القسطنطينية سنة ٦٨٠ إلى مجمع القسطنطينية ونيقية سنة ٧٨٦ – ٧٨٧. كل ذلك قبل أن يولد أحمد بن حنبل. أما الخلافات بعد ممات أحمد فستحدث الحروب العالمية.

الأيقونات (التماثيل والصور) وانعقد مؤتمر نيقية (٧٨٧ – ١٥٧هـ) ليبيح تقديسها! فكانت حرب الأيقونات إرهاصًا بالانقسامات بين كنيسة شرقية في القسطنطينية وكنيسة غربية في روما بتأييد شارلمان.. ولسوف ينقسم المنقسمون.

ومن الخلافات ما يدمر الإمبراطوريات:

لقد انتهى الخلاف بين رجال الكنيسة وبين الحكام في القرون الوسطى على أن ينفذ رجال الدين آية المسيحية فيتركوا "ما لقيصر لقيصر" في مقابل أن يترك لهم ملوك الأرض مملكة السماء.. ليبيعها البابوات، بعد، في شكل صكوك أرضية للمغفرة السماوية! فتكون فضيحة ينقسم رجال الدين حولها.

ثم بدأ الرجال ينقسمون حول البابوات أنفسهم. وهؤلاء يقولون إنهم فيما يصنعون يعبرون عن آراء المسيح. وإن الكنيسة تمثله.. ولا تمضي القرون حتى تتقاسم الكنائس المنشقة ضمائر الناس في القرن السادس عشر من ميلاد المسيح، بين كاثوليك وبين بروتستانت إنجليكان وآخرين غيرهم ينفصلون كلهم عن البابوية.

ولما احتج لوثر (١٤٨٣ – ١٥٤٦) على البابا وحوكم في مؤتمر "ورمز" ليقبل آراء البابا، وجد النظام البروتستانتي (المحتجين) الذين مهد لقيام الدولة الألمانية وانقسام أوروبة.

وبظهور زونجلي (١٤٨٤ – ١٥٣١) في سويسره وكالفن (١٥٠٩ – ١٥٦٤) في سويسرة وفرنسا تبادل الأتباع تهم الهرطقة. وبلغت فظاعة الكنيسة في إنجلترا آخر المدى. لكن قسوة الكنيسة الفرنسية فاقت إنجلترا.

لقد أقر البابا إنشاء غرفة في برلمان باريس لمحاكمة الملحدين... وهم البروتستانت الفرنسيين (الهيجونوت)! فكانت تسمى غرفة الحريق لكثرة ما حرقت من الفرنسيين.

وكانت مذبحة فاسي للهيجونوت التي دبرها الدوق جيز نذيرا بمذبحة سانت برتلمي (١٥٧٢) بعد عشر سنين. وقد دبرتها الملكة كاترين.

ثم كانت مذابح هؤلاء وأولائك أقل بشاعة من المذابح في أسبانيا! يحرقون ويصلبون ويقطعون أوصال الرجال أحياء.

وهم جميعًا حرب على من عداهم [١٦٠].

يقول المؤرخ الإنجليزي جبون في كتابه (تاريخ اضمحلال وسقوط الإمبراطورية الرومانية) عن تصاعد البطش من جراء هذه الانقسامات "لم تتعادل الشهوة الدموية لجنود الإمبراطورة تيودورا مع أبطال الحرب الصليبية إلا في فظائع البطش والقسوة. ولكن الباب أنوسنت الثالث تجاوز الشدة الدموية لهذه الإمبراطورة. كما أزرى بقسوة قساوستها بطش الذين أسسوا محاكم التفتيش، وكانت نظامًا يفتش لعمل الشر لا لدفعه.. والذين كانوا يحتجون على استبداد روما كانوا يتمسكون بالإنجيل كأساس للعقيدة المبرأة من الغنوص (إدعاء الاتصال المباشر بالسماء)... وجاءت أسماء لوثر وزونجلي وكالفن فرددها الناس شاكرين لأصحابها باعتبارهم منقذين للشعوب".

ثم يبلغ الإرهاب ذروته حتى ليعجز صانعه عن تصوره! فيهرب منه! فيتنازل شارل الخامس إمبراطور ألمانيا وأسبانيا لابنه، ندمان على ما ارتكبه لإكراه الناس لينزلوا على رأيه، "في حين لا توجد في إمبراطوريتي ساعتان دقاقتان متطابقتان" كما قال وهو معتزل في دير سان بيست. وهي حكمة تهبط عليه بعد الأوان، علمتها السماء إمبراطورًا وثنيًا سابقًا للرومان من ألف ومائتي عام قبله (دقلديانوس)، عندما أصابه الإعياء من الفتك والسفك في روما ومصر حتى دعي عصره عصر الشهداء، فتنازل عن عرشه وأوى إلى مزرعته سنة ٣٠٥. ولما دعاه زميله في العرش للعودة كتب إليه "لو شهدت الخضر التي أنتجها في سالونا لما تحدثت إلي عن الإمبراطورية".

* * *

ومن انقسام الكنائس في القرن السادس عشر بدأت مائة عام من الحرب في أوربة اختتمتها حرب الأعوام الثلاثين (١٦١٨ – ١٦٤٨) بين الأمم الكاثوليكية والأمم البروتستانت. ثم شملت كل أوربة. لتنتهي بصلحي ازنابروك مع البروتستانت ومستر مع الكاثوليك اللذين تضمنتهما معاهدة وستفاليا سنة ١٦٤٨ لتكون أساس تكوين أوربة المعاصرة، فتشمل على قسمين

---

(١٦٠) كان حظ ملايين المسلمين الذين وقعوا في أيديهم بأسبانيا أفظع الحظوظ، من قتل وحرق وتنصير، إلى تغيير أسماء بعد التنصير، وتغيير لغة، إلى محاكم التفتيش التي يسود بها التاريخ وجه أوربة الحديثة، تتخذ تملة لذبح الذين يتنصرون حتى بعد أن يتنصروا! وفي عمي ١٦٠٩ – ١٦١٠. ثم طرد بقايا العرب فعبر البرزخ إلى شمال أفريقيا قرابة مليون عربي مطرودين.

أساسيين أولهما سياسي دولي ينظم شئون الدول الأوروبية القائمة ويقرر استقلال سويسرا وهولندا.. وثانيهما ديني دولي يعلن الحرية الدينية لأصحاب المذاهب المسيحية ويبيح الهجرة للذين لا توافق دولتهم على مذهبهم، ويمنع الأمراء أن يقسروا أحدًا على دينهم ويبيح للبروتستانت ما أخذوه من أموال الكنيسة.. ومن هذا الخلاف الفكري الديني كانت الهجرات الكثيرة إلى أمريكا.

والمهاجرون نواة العالم الجديد.

هكذا بدأت الحضارة الأوربية المعاصرة نهضتها، ودول القارة الأمريكية وجودها، بالحرية الدينية والفكرية التي لم تبلغها إلا بعد حروب طويلة. وتبعتها الثورات من أجل سائر الحريات. فكان أول إعلان لحقوق الإنسان في الأراضي المنخفضة في ٢٦ يوليو سنة ١٥٨١. ثم تتابعت إعلانات الحقوق في إنجلترا وأمريكا وفرنسا في القرن الثامن عشر ثم في الأمم المتحدة في القرن العشرين.

وفي سنة ١٥٩٨ أصدر ملك فرنسا مرسوم تانت بإعلان الحرية الدينية للفرنسيين (الهيجونوت). فكان يهدي رعاياه قطرات من بحر فجره الإسلام لكل الحريات من ألف عام.

ولو تهاون إمام المسلمين أمام إرادة المأمون، وما هي إلا إرادة في العقيدة كإرادات الأباطرة والباباوات، لانقسم المسلمون انقسام المسيحيين ولتذابحوا كما تذابح الآخرون.

لكن السماء قبضته لحماية المسلمين.

والله بالغ أمره.

## الحكم في مواقف المأمون والمعتصم والواثق:

قامت الدولة العباسية على رماح الموالي بدعوى إعادة الحق إلى نصابه في بيت النبي تتغيا غايتين:

الغاية الأولى: إعادة المساواة بين الموالي والعرب في أمة لا فضل فيها لعربي على أعجمي إلا بالتقوى. في دولة يقول فيها عمر "لو كان سالم مولى حذيفة حيًا لوليته". لكن بني أمية رفعوا أنفسهم درجة على العرب، ورفع العرب أنفسهم على الموالي درجات، وصاروا يسمون الموالي بالعلوج.

تزوج أعجمي أعرابية من بني سليم فشكاهما محتسب إلى إبراهيم بن هشام والي المدينة وصهر الخليفة عبد الملك ففرق بينهما لعدم الكفاءة بل ضرب الزوج مائتي سوط وحلق لحيته وحاجبه. فقال الشاكي فيه:

قضيت بسنة وحكمت عدلاً ولم ترث الحكومة من بعيد

وجرير يقول:

قالوا نبيعكه بيعًا فقلت لهم بيعوا الموالي واستغنوا عن العرب

ويقول المبرد – وهو في عصر بني العباس "وتزعم الرواة أن ما أنفت منه جلة الموالي هذا البيت لأنه حطهم ووضعهم".

ولم يكف الفرسان والخراسانيون خاصة عن مناوأة بني أمية لهذه النزعة.وقد عبر عن غضب خراسان وفارس نصر بن سيار والي بني أمية على المشرق في شعر شهير بعث به إلى الخليفة يقول فيه:

أرى تحت الرماد وميض نار ويوشك أن يكون لها ضرام

ولم تمض بضعة أعوام حتى سير أبو مسلم الخراساني جيوشه لحرب بني أمية وكثرة جنده فلاحون من خراسان.

ولما ولي العباسيون كان مؤسسو الدولة يعرفون للفرس عارفتهم، بل يشيرون إلى خراسان على أنها (باب الدولة)، والجاحظ – شيخ المبرد – يقول بعد قرن من قيام دولة بني العباس = (دولتهم أعجمية خراسانية ودولة بني أمية عربية أعرابية).

ولقد بدأ إدبار دولة بني العباس في عصر المأمون إذ فضل العجم الذين أجاءوه إلى الخلافة على العرب الذين حاربوه مع أخيه، وأدى لطاهر ابن الحسين قائد جند خراسان ثمن انتصاره، فقامت الدولة الظاهرية (٢٠٢ – ٢٥٩) بخراسان [١٦١]. وثنى المعتصم فجعل الجيش الدائم من الأتراك فسيطروا على مراكز القوة. ومكنوا للشعوبيين فمال ميزان المعدلة إلى حيث لا عودة.

وتجلى التخليط في دماء الخلفاء فصار كثير من الخلفاء هجناء: المأمون أمه "مراجل" من خراسان. والمعتصم أمه "ماردة" من الترك. والواثق أمه "قراطيس" من الروم. والمتوكل أمه "شجاع" من خوارزم. والمستعين أمه مخارق" رومية. والمعتز أمه "قبيحة". والمقتدر والمستكفي أماهما روميتان. والمطيع أمه صقلية. فكان طبيعيًا أن يشبه بيت الخلافة عصبة الأمم!

الغاية الثانية – تطبيق أحكام الدين، ولهذا كان الخلفاء العباسيون خلفاء دينيين يزعمون أنهم يمثلون الله تعالى في الأرض. يقول السفاح (١٣٦) يوم قامت الدولة: "الحمد لله الذي اصطفى الإسلام لنفسه تكرمه – واختاره لنا وأيده بنا وخصا برحم رسول الله وقرابته وأنشأنا من آبائه وأنشأنا من شجرته.. جعله من أنفسنا عزيزًا عليه ما عنتنا".

فلما ولي الخليفة الثاني (أبو جعفر المنصور) قال: "أيها الناس إنما أنا سلطان الله في أرضه أسوسكم بتوفيقه وتسديده. وأنا خازنه على فيئه أعمل فيه بمشيئته... قد جعلني الله عليه قفلا" ولما أوصى لابنه المهدي قال له: "إن أمير المؤمنين يوصيك بتقوى الله في البلاد والعمل على طاعته في العباد.. فكأني بك وقد أوثقت بين يدي الجبار... فما عساك أن يكون حالك يومئذ وقد خاصمك الخلق...."

---

(١٦١)

وكانت طريقة حياته كمثل فقهه السياسي: يؤدي الفروض والرواتب. يصلي الفجر ثم يجلس في مصالح الرعية إلى أن يصلي الظهر، ثم يعود إلى أن يصلي العصر، ثم يعود إلى أن يصلي المغرب ثم العشاء، ويجلس مع سماره إلى ثلث الليل الأول فينام الثلث الأوسط ثم ينتبه إلى أن يصلي الفجر ويقرأ في المصحف إلى أن ترتفع الشمس فيجلس للناس.

دخل عليه يومًا شعيب بن شيبه فسأله: عظني وأوجز – قال شعيب: "إن الله لم يجعل أحدًا من خلقه فوقك فلا ترض لنفسك أن يكون له أشكر في الأرض منك" قال: أحسنت وأوجزت.

ولما شكا أهل البصرة إليه قاضيهم سوار بن عبد الله استدعاه. وإنه لفي مجلسه إذ عطس المنصور فلم يشمته فقال له مالك لم تشمتني؟ قال سوار لأنك لم تحمد الله! قال المنصور: أنت لم تحابني في عطسة فلن تحابي غيري.. عد إلى عملك.

ومع أن المهدي كان أروع من الرشيد فالرشيد كان يصلي في اليوم مائة ركعة. وكانت المكاتبات في الدولة تستفتح بسم الله الرحمن الرحيم. فأمر أن يصدر فيها بعد البسملة الصلاة على النبي ﷺ. فحملت وثائق الدولة طابعها الديني كاملاً: الله تعالى ورسوله.. وكان هو وأباؤه الخلفاء يلبسون بردة النبي في صلاة الجمعة وفي الأعياد الرسمية، ويهزون أعطافهم خيلاء إذ يقال للخليفة منهم: ابن عمك رسول الله ﷺ.

والتاريخ يرفع الرشيد إلى أعلى درجات الحكام العالميين، لا لإمبراطوريته المعدومة القرين – فهي ميراث توارثه – وإنما أجلته الإنسانية من أجل سجاياه وتوفيقه.

يقول سان بيف كبير النقدة في القرن التاسع عشر للميلاد عن لويس الرابع عشر: "لم يكن فيه إلا حسن التقدير لكن حسن تقديره كان عظيمًا" – فبحسن التقدير وحفظ التوازن قاد القارة الأوروبية في عصره فآمنها من الزعازع – وأين (الملك الشمس) من هارون الرشيد: سعة ملك وعظم علم وعمق ورع واتزان نفس وتوازن حكم!

يجلس إلى مالك بن أنس وأبي يوسف والفضيل، ومع ذلك ينشئ دار الحكمة لترجمة الثقافة العالمية، وكلها وثنية.

ويحج عامًا راكبًا أو ماشيًا، ويغزو عامًا في الشمال أو في الشرق.

وبكى خاشعًا للموعظة الحسنة، ومع ذلك لا ينسى نصيبه في الدنيا.

وهو في إدارة الدولة وسيط أبي جعفر: ينحاش إلى الفرس وينحاش عنهم، حسب الحاجة. رجل سلم وأناة وحلم. لكن ساعات حزمه حاسمة.. بمثل ما أزال كالجراح بمبضعه أورام البرامكة... في لحظات.

والسياسة العالمية هي التي تقرأ الكتاب المغلق على الغد وتدير مفاتيح المستقبل.

والمأمون مع سوء سيرته في المحدثين يقول للمعتصم إذ يعهد إليه بالخلافة: "واعمل في الخلافة إذا طوقكما الله عمل المريد لله الخائف من عقابه وعذابه".

هكذا كانت الدولة في قرنها الأول (١٣٢ – ٢٣٢) تمسك الميزان بين أجناس الإمبراطورية العالمية، وتتبدى فيهم حامية للدين مع ما صاحب خطوات بعض الخلفاء من كبوات. كتفضيل المأمون للفرس وأخيه للترك، أو سقطته وأخيه في صدد خلق القرآن. لكن الخليفتين ظلا قادرين على الاحتفاظ بالتوازن بين عناصر الأمة وإعلاء كلمة الدين. والمأمون قائد مسلم قضى نحبه على رأس جيشه في تخوم الروم. والمعتصم بطل عمورية آخرة المعارك العظمى في تاريخ بني العباس من أجل الإسلام.. أما الذين جاءوا بعد هؤلاء فكانوا طرازًا آخر من الرجال... ورثوا المسئولية عن أخطاء السابقين عليهم – وفيها أخطاء المأمون والمعتصم – ثم ازدادوا بعدًا من القواعد التي قامت عليها دولتهم. وسدروا في الجهل والشهوة، وعاشوا فزعين من أهلهم، وحاشيتهم، وجندهم.

وحياة الأمم في عصر هي حاصل حياة أفراده.. وحياة الأفراد حاصل ما يفكرونه ويحققونه يومًا بعد يوم. ومن ذلك يتكون روح الأمم.. وما أخطاء الأمم والدول إلا أخطاء الروح التي يحيا بها بنو العصر، وأصحاب الدولة... وبهذا كان لزامًا أن يدمر بنو العباس أنفسهم.

مع ذلك بقيت مظاهر السلطة الدينية لبني العباس يستغلها فيهم من يغتصبون سلطانهم. وأمسى هناك سلطتان، سلطة زمنية في يد السلاطين الغاصبين للدولة، وسلطة دينية في يد الخلفاء المغصوبين، تتمثل في اسم "بني العباس". فلما تفتتت السلطة الزمنية فصارت دولاً، تسابق أصحابها على الظفر بتأييد الخلفاء، أو برضاهم الظاهري، أو صحبتهم أو السيطرة عليهم، أو كسب تأييدهم لإدعاء أساس شرعي لسلطة فعلية.

وعلى هذا وقف أحمد بن طولون بمصر – وقد صارت له بها دولة – إلى جوار المعتمد ضد أخيه الموفق.. وزوج خمارويه بن أحمد بن طولون بنته قطر الندى من الخليفة المعتضد زواج دولة. وسيتكرر المشهد بعد قرنين إذ يقصد طغرل بك مؤسس الدولة السجلوقية إلى بغداد ليطلق الخليفة القائم بأمر الله (٤٢٢ – ٤٦٧هـ) من محبسه، فيأخذ بلجام بغلته ويمشي أمامه! ثم يزوجه بنت أخيه ويتزوج بنته.

وبعد قرنين آخرين يصطنع بيبرس لأجل دولته خلافة عباسية في جواره بالقاهرة [١٦٢].

* * *

كانت محنة خلق القرآن ثالثة الأثا في.... إذ هي هجوم مباشر على المحدثين وأهل السنة في أدق أمور العقيدة، اتخذ شكل محاكم التفتيش التي سبق بها المأمون محاكم التفتيش الذائعة الصيت في عصر التعصب الأوروبي! مع المجازفة بغضب الأمة دفاعًا عما تتعبد ربها به... والإسلام قانونه أن يدعو الناس إلى سبيل ربهم بالحكمة والموعظة الحسنة. فإذا دعوا إليه بالسيف، لم تكن دعوة إسلامية.

وليس في الإسلام سلطة كنسية أو بابوية كالتي زعمها المأمون والمعتصم والواثق لأنفسهم، يوم أصدر هؤلاء، وفي جوارهم النظام وثمامة والجاحظ وابن أبي داؤد، أوامر إلى أصحاب الحديث وأهل السنة في صدد القرآن والسنة. فكانوا كالبابوات على رأس الكنيسة في صحبتهم أسوأ الأحبار سيرة.

ويوم تخرج الدعوة الدينية – التي أصبحت دولة عباسية – على قانونها تفقد سبب نجاحها كله.. والأشياء لا تبقى إلا أن تبقى الظروف التي أوجدتها.

---

(١٦٢) لما زلت الخلافة العباسية سنة ٦٥٦ هرب إلى مصر واحد من العباسيين سنة ٦٦٠ فنصبه الظاهر بيبرس (٦٥٦ – ٦٧٦) خليفة شرعيًا بلا سلطة. وكان الظاهر يقوم بمعاشه. واستمر خلفاء هذا الخليفة يمثلون السلطة الدينية وربما عاشوا من النذور التي كانت تقدم بمقام السيدة نفيسة في حي الخليفة الآن – فهذا الحي يحمل هذا الاسم بسبب إقامة الخليفة العباسي فيه.

وفي سنة ٨١٥ قامت بمصر دولة عباسية دينية وسياسية لمدة ستة أشهر إذ اختلف المماليك فيما بينهم وقتلوا السلطان عبد العزيز بن برقوق وتراضوا على تعيين الخليفة العباسي سلطانًا ثم خلعوه وعادت الخلافة الرمزية لتبقى حتى سنة ٩٢٣ عندما فتح الأتراك مصر فأخذ السلطان التركي الخليفة العباسي معه إلى أسطنبول، وهناك قامت الخلافة العثمانية. أحمد بن حنبل

كان لعمر بن الخطاب عبد من أهل الكتاب اسمه أسبق، فطلب إليه أن يسلم ليستعين به في بعض مصالح المسلمين وأبى العقد، فأعتقه وقال له اذهب حيث شئت.

كان تردد المأمون في فرض بدعته بضعة عشر عامًا وليد حكمة سياسية، وكان تعجله في فرضها في الأشهر الأخيرة مظهرًا لسورات غضبه أو ضيق ذرعه، يريد ليظهر في الناموس أن له الكلمة الأخيرة في أمور دينهم. فانحرف عن قاعدة دينه. بل انحرف عن قانونه. وهو القائل: "غلبة الحجة أحب إلي من غلبة القوة". وعن القانون الذي أعلنه من منبر دمشق عمير بن سعيد: "ما يزال الإسلام منيعًا ما اشتد السلطان وليست شدة السلطان قتلاً بالسيف أو ضربًا بالسوط ولكن قضاء بالحق وأخذ بالعدل". أي عن شريعة النبي ﷺ: "ليس الشديد بالصرعة ولكن الشديد من يملك نفسه عند الغضب".

ولما خالف المأمون منهجه ومنهج السنة في الشكل والموضوع انفصل عن الجماعة وأبعد من أهل السنة فمشى مكبًا على وجهه والدولة معه، في طريق عكسي لطريق الناس، كلما أغذ المسير فيه أبعد من مصلحة الدولة. ولا ترك المعتصم عظائم الأمور في يد أحمد بن أبي داؤد تركها في أيد غير مسئولة عن مصيرها، فأمسى كالذي تدور به الدنيا ولا يرى دورانها به.

وكانت مأساة المأمون والمعتصم أنهما صنعا بأيديهما عملاً لكن آثار هذا العمل تصنعها أيدٍ أخرى مع ظروف الزمان والمكان والمجتمع، ولعل أظهر هذه الآثار إحداث أزمة ثقة مزمنة بين الخلفاء والأمة. وتمادى الخلفاء في الاستهتار بغضب العامة. وتتابع الخلفاء والأمة. وتمادى الخلفاء في الاستهتار بغضب العامة. وتتابع الخلفاء بعدهم أسارى في أيدي الترك. وانطواؤهم على أنفسهم، يعيشون من يوم ليوم، ويغرقون آلامهم ومخاوفهم في شهواتهم. وسريان الفساد في قصر الخلافة كالشراب الحرام يعاقره المسئول عن محاربته. فإذا وجدت نفس صالحة لم تكتب لها حياة. وببعض هذا تنهار الدول.

وإذا كانت سياسة المعتزلة آفة المأمون والجهل آفة المعتصم فالحتل والميل آفة ابن أبي داؤد.

والعدل – كالحق والحقيقة – لا يحتمل الختل أو الميل.. فما بالك بهما إذا اجتمعا.

والقاضي – ومنه العدل – لا يكون خصمًا وحكمًا.

والعمل الواحد يدلي فيه الشركاء بالدلاء فتختلف أقدار خطاياهم، قدر ما يختلف نواياهم. والتاريخ يدين فساد السيرة وسوء السريرة. وعندما يقضي يصفي الوقائع ويمحص الشوائب ويحتفل بالإخلاص.

كانت سياسة (لافال) رئيس وزراء فرنسا في الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩ – ١٩٤٥) وفيما قبلها، هي التقارب أو التحالف مع ألمانيا. وكذلك كانت سياسة بيتان – رئيس جمهورية فرنسا إبان الحرب – وكان ديجول هو العدو الأول لها. فلما وضعت الحرب أوزارها بهزيمة ألمانيا ثم صار ديجول رئيسًا للجمهورية بعد بضعة عشر عامًا وسلك سياسة لافال وبيتان، كانت فرنسا قد أعدمت لافال إذ قبحت مسلكه وقبلت في بيتان الظروف المخففة لإخلاصه. لكنها فيما بعد رفعت ديجول إلى القمة لأنها تدرك الإخلاص في رأيه الأول ورأيه الأخير.

والتاريخ، الذي يمسك الميزان، يدين ابن أبي داؤد لمسلكه وهو يحمل وصف قاضي القضاة. ويدين الجاحظ لافترائه وارتزاقه بآرائه. ويدين المأمون والمعتصم لابتزازهما آراء العلماء في مسألة دينية. ولا يغفر للواثق أعمالاً وأقوالاً منها قتل أحمد بن نصر من جراء رأيه في خلق القرآن وإن كان القتل في الواقع من جراء اتهامه بالمؤامرة [١٦٣].

---

(١٦٣) استكثر المعتصم من الأتراك فاستجلبهم من سمرقند وفرغانة حتى بلغت عدتهم ثمانية عشر ألف مملوك – أو كما يقول المؤرخون الفرنجة خمسين ألفًا – واستذأبت كلاب الصيد على أصحابها وعلى أهل بغداد فملك المماليك مالكيهم.

قال أهل بغداد غضابًا للمعتصم: تحول عنا بهم وإلا قاتلناك – قال وكيف تقاتلونني وفي معسكري مائة ألف دارع؟ قالوا نقاتلك بسهام الليل (أي سهام الدعاء عليه في الليل): قال: والله مالي بها طاقة. وانتقل بجنده إلى مدينة جديدة بناها لهم أسماها سر من رأى فسمتها العامة سامرا اختصارًا لسر من رأى أو ساء من رأى.

وقول المعتصم عن دعاء أهل بغداد يعلي شأن الدعاء، ويعلن خروجه بجنده هربًا من بغداد. لكن الذي لم يعلنه هو أنه خرج بهم ليناوا عن دسائس الفرس الذين كانت لهم المكانة في بغداد.. فهذان ظلم من فوقه ظلم

للعرب. والرسول عليه السلام يقول: (اتقوا دعوة المظلوم وإن كان كافرًا فإنه ليس دونه حجاب) والله تعالى يدفع عن المظلوم من سماء قدرته.

ومسئولية المأمون في هذين الظلمين كبيرة فهو القدوة التي اقتدى بها من جاءوا بعده للارتماء في أحضان الشعوبيين في حين لم يكونوا قادرين على المناورة السياسية قدرته. فارتموا في كل الأحضان. من الفرس إلى الترك إلى البربر.

وكان من منطق الأشياء أن يتلازم الميل في الدين والميل عن العرب:

لقد ورد كتاب المعتصم إلى والي مصر بإسقاط العرب من الجندية المنظمة وهو يمتحن الفقهاء والمحدثين والقضاة سنة ٢١٨.

وكان طبيعيًا من دولة تغير قلبها العربي فتصير، فارسيًا ثم تنقله فتجعله تركيًا ألا ينقضي عليها أعوام عشرة حتى يتوج الواثق بن المعتصم القائد التركي أشناس بتاج. ويلبسه وشاحين من جوهر. فيصير، ملكًا! ثم يفوض إليه السلطة ولا يستبقي لنفسه إلا شهواتها فكبكب فيها إلى آخر المدى.

إليك مثلاً من أمثال: جلس الواثق على سرير مرصع بالجوهر وعليه ثياب منسوجة بالذهب، في قصر مفروش بالوشي والديباج، وهو يشرب رطلاً بعد رطل من النبيذ يسمع إلى الجارية فريدة وهي تغنيه:

أهابك إجلالاً وما بي حاجة ... إليك ولكن ملء عين حبيبها
وما هجرتك النفس يا ليل أنها ... قلتك ولكن قل منك نصيبها

وأخذته النشوة فضرب مغنيته برجله في صدرها فتدهورت نحو السرير. ثم قال: صنعت ذلك لأني تصورت أنك ستغنين بعدي للمتوكل ولما هلك الواثق اختفت فريدة – ولم يعثر عليها المتوكل إذ خلفه وفاقه في استهتار، بل في نقائصه. ومن هواه بوصيفته (قبيحة) أثر ابنها المعتز على ابنه الآخر الملقب بالمنتصر فتآمر المنتصر مع الأتراك على أبيه فقتلوه سنة ٢٤٧. ولم يهنأ القاتل بالخلافة إلا أشهرًا ستة مات بعدها. فولى الأتراك ابن عمه (المستعين) أحمد بن محمد بن المعتصم (٢٤٨ – ٢٥٢) ثم خلعوه، ثم قتلوه. وولوا المعتز... فقعد أصحابه يتساءلون كم يبقى؟ وأحضروا المنجمين! لكن الوحيد الذي أنطقه الله بالحقيقة قالها في شكل مزحة (يبقى قدر ما يريد الأتراك) وكانت إرادتهم في بقائه قليلة إذ عزلوه في سنة ٢٥٥. ووقفوه في الشمس وحبسوه في بيت سدوه فمات فيه، ثم ولوا المهتدي بالله، وكان صالحًا، لكنه ابن الواثق، قاتل أحمد بن نصر بيده، لم يمهله الأتراك ليحدث إصلاحًا فقتلوه بعد عام سنة ٢٥٦. ثم قول المعتمد ابن المتوكل، ولعلمه بقي ثلاثة وعشرين عامًا لأنه قنع من الخلافة باسمها. وهو القائل:

ألـيس من العجائب أن مثلي ... يرى ما هان ممتنعًا عليه
وتؤكل باسمه الدنيا جميعًا ... وما من ذاك شيء في يديه

وذات يوم طلب ثلثمائة دينار فلم يجدها.

وخلفه المعتضد بن أخيه طلحة حتى سنة ٢٨٩، فاملكتفي بن المعتضد حتى سنة ٢٩٥ إذ مات. فولوا أخاه المقتدر وهو غلام. وثار البعض منهم عليه وولوا ابن المعتز ليلة واحدة ثم قتل سنة ٢٩٦. وابن المعتز هو الشاعر الكبير، وله الأرجوزة المعروفة وفيها لخص القانون الذي أخذ الأتراك به الدولة وسيأخذونه به

كـــل يـــوم خليفـــة مقتـــول  أو خـــائف مـــروع ذليـــل

وعاد المقتدر وهو غلام تسوس دولته أمه وقهر مانتها ثمل. فصارت القهرمانة تجلس للمظالم وتبرز التوقيع باسمها للناس!

ويطلب الترك إلى المقتدر أن يجيئهم بأرزاقهم من عند أمه فتجيئهم. ثم يقتله الجند في سنة ٣٢٠. وكانوا هذه المرة من البربر. ويتولى أخوه القاهر. فيصادر أم المقتدر ويعلقها منكسة من رجل واحدة ليستخرج منها مائة وثلاثين ألف دينار! ثم تأخذه السماء بعدلها، ويأخذه الأتراك بظلمهم، فيخلعونه بعد عامين سنة ٣٢٢. ويفقئون عينيه ويولون الراضي بن المقتدر فكان الخليفة المخلوع – القاهر – قبل أن يقتلوه يقف بين الصفوف في جامع المنصور، كفيفًا، يتكفف، وهو يقول: تصدقوا علي فأنا من قد عرفتم.

وصار الراضي – كما يقول المؤرخون – آخر الخلفاء في أشياء يهمنا منها الآن أنه آخر الخلفاء في تدبير الملك. ففي عهده استولى ابن واثق التركي على السلطة وصارت فارس في يد علي بن بويه. والري وأصفهان والجبل في يد أخيه. والموصل وديار كبر وديار ربيعة في يد بني حمدان. ومصر والشام في يد الإخشيد وخراسان في يد بني سامان. والأندلس في يد عبد الرحمن بن محمد الأموي.

وبقى الراضي حتى سنة ٣٢٩. وفي عهده قطعت يد الوزير ابن مقلة، اليد التي كتبت الخط المشهور باسمه والتي أمرت بقتل الوزير الحسن بن القاسم وأودعت اليد في خزائن القصر! ليعثر عليها وعلى الرأس في سقط عليه البيان الذي أسلفناه ناطقًا بعدل السماء.

وفي سنة ٣٢٩ تولى المتقي بعد موت أخيه الراضي. وفي سنة ٣٣٤ خلع المتقي وسلمت عينه دون أن يقتل فكان أول مسمول تركوه! ثم تولى المستكفي بن المكتفي ودخل البويهيون الغزاة عليه فنكسوا عرشه وسلموا عينه ليولوا "المطيع" بن المستكفي ليبقى في طاعتهم حتى سنة ٣٦٣ ثم يخلفه ابنه "الطائع" ويتتابع بقاء الخلفاء المطاويع قدر ما يتركهم الأتراك. فمنهم من يبقى خمسة وثلاثين عامًا كالقادر بن المقتدر – ولا قدر لهما – (٣٨٧ – ٤٢٢) أو خمسة وأربعين كالقائم بن انلقادر (٤٢٢ – ٤٦٧) أو سبعة وأربعين كالناصر بن المستضيء (٥٧٥ – ٦٢٢). وجلل الظلام مدينة السلام بعد أن تقاسمت الدولة سلطة الخلافة ولم يبق للخلفاء إلا الاسم من سنة ٣٣٤ حتى ٦٥٦ يوم دمر هولاكو مدينة السلام بخيانة الوزير ابن العلقمي فدخلها وقتل الخليفة وقتل الوزير الخائن.

## الحكم في الامتحان:

تولى المتوكل الخلافة لست بقين من ذي الحجة سنة اثنين وثلاثين ومائتين بتأييد من ابن أبي داؤد غلب به الوزير محمد بن عبد الملك الزيات الذي كان يرى استخلاف محمد بن الواثق وهو حدث.

وفي سنة ٢٣٣ أصيب ابن أبي داؤد بالفالج فولى القضاء ابنه محمد. وكان الجاحظ أيامئذ يلوذ بمحمد. فأشار به ليعلم ولي العهد. فدعى للقاء الخليفة في رجب سنة ٢٣٤ وقد ناهز الثمانين، والخليفة في الخامسة والعشرين، فاستبشع منظره وقال: ضجرت المشايخ وأريد أحداثًا يعلمون ولدي.

ومن أدب الجاحظ وصفه لقامته وسحنته قال: "ما أخجلني أحد مثل امرأتين إحداهما في العسكر وكانت طويلة القامة، وكنت على طعام. فقلت لها أنزلي كلى معنا. فقالت: بل أصعد أنت حتى ترى الدنيا! وأما الأخرى فقالت: بي إليك حاجة، وأريد أن تمشي معي – فقمت معها حتى أتت إلى صائغ يهودي فقالت له: مثل هذا... وانصرفت... فسألت الصائغ فقال "إنها أمرتني أن أنقش لها على فص صورة شيطان.. فقلت يا ستي ما رأيت الشيطان.. فأتت بك وقالت ما سمعت".

---

يقول ابن الطقطقي (فانظر منذ عهد المتوكل إلى عهد المقتفى ما جرى على واحد واحد من الخلفاء من القتل والخلع والنهب بسبب تغير جنده ورعيته. فهذا سمل وذلك قتل والآخر عزل...).

وحياة الدولة كلها دروس في عهد المقتفي (٥٥٥) ومن بعده. فهو خليفة المسلمين الذي أجلسه السلطان السلجوقي مسعود وبايع له ثم أخذ جميع ما بدار الخلافة من ذهب وأثاث وغير ذلك وانصرف وتلاه ابنه المستجد فخنقه أكابر دولته في الحمام سنة ٥٦٦ وولي بعده ابنه المستضيء حتى سنة ٥٧٥ فأكمل ما صنعه الأكابر بأبيه – قتل وزير ابن البلدي وولاهم الوزارة والوظائف كما شرطوا عليه وولى بعده ابنه الناصر سبعة وأربعين عامًا سنة ٦٢٢ يقترن طولها بانعدام الذكر لأمر ذي خطر وخلفه الظاهر فالمستنصر (٦٢٣ – ٦٤٠) وخلف من بعده المستعصم ليقتله الغزاة في سنة ٦٥٦ وتنتهي الدولة.

وكان المستعصم آخر الخلفاء شديد الكلف باللهو واللعب وسماع الأغاني لا يكاد مجلسه يخلو من ذلك ساعة واحدة وكان ندماؤه وحاشيته جميعًا (منهمكين في التنعم واللذات لا يراعون له صلاحًا.... ومما اشتهر عنه أنه كتب إلى بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل يطلب منه جماعة من ذوي الطرب وفي تلك الحال وصل رسول السلطان الأكبر يطلب منه منجنيقات وآلات حصار فقال بدر الدين انظر إلى المطلوبين وأبكوا على الإسلام وأهله).

ثم ضاق المتوكل ذرعًا بالمحنة أو بالقطيعة بين الأمة والخلافة. فبعث إلى الأمصار في ذي الحجة سنة ٢٣٣ ببطلانها [١٦٤] وأثبت التاريخ مرة أخرى أن الملوك أحوج إلى العلماء من العلماء إلى الملوك. ودعا الخليفة المحدثين ليجلسوا للناس ويردوا قول المعتزلة ويحدثوا بأحاديث الرؤية وإثبات الصفات لله جل وعلا. فجلس عثمان بن أبي شيبة (٢٣٩) في بغداد ليجتمع عليه ثلاثون ألفًا في المجلس وجلس أخوه أبو بكر بن أبي شيبة (٢٣٥) في مسجد الرصافة ليجتمع حوله ثلاثين ألفًا أخرى.

ودار الزمن دورته. فأدار وجهه يعتذر للرجل الذي رفع رأسه عاليًا في وجه الزوابع. وتتابعت العبر. فأما الذين زينوا قتل أحمد بن نصر فيحرق أولهم: "محمد بن عبد الملك الزيات". "وهرثمة" يقطعه الناس إربًا إربًا. أما الجلاد الذي جلد أحمد بن حنبل – "أبو العروق" – فمكث أربعين يومًا ينبح قبل أن يموت نباح الكلاب... ويصاب ابن أبي دؤاد بالفالج. ويعزل ابنه محمد من القضاء. ويموت الابن في حياة الأب. ثم يموت الأب في أسوأ حال.

وأخذ المعتزلة أخذه رابية، فشردوا وجردوا واقمعوا في أقماع السمسم. أما الجاحظ رفيق المأمون، وهو يموت بالبندندون، فيبقى سنين تتوافر عليه فيها العبر، ليرى الناس رأي العين الكاتب الذي هزأ بالكثيرين وهو يستدر العطف. ويشكو إلى الخلق. حيث لا تنفع الشكوى.

يقول المبرد: دخلت على الجاحظ في آخر أيامه وهو عليل فقلت كيف أنت؟ فقال: كيف يكون من نصفه مفلوج، ولو نشر بالمناشير لما أحس به، ونصفه منقرس لو طار الذباب بقربه لآلمه!

وجعلت الأمة الإمام الممتحن امتحانًا هو ذاته. يقول الشاعر ابن أعين:

أضحى ابن حنبل حنة مأمونة  وبحب أحمد يعرف المتنسك

---

(١٦٤)

## الحكم في المتوكل:

وبدأ الفصل الثالث من مأساة ثلاثية الفصول. الأول: المأمون يعرض على السيف أحمد بن حنبل. والثاني: ألمعتصم يشرع في قتل أحمد بن حنبل. والثالث: التاريخ يعيد أهل السنة إلى مكانتهم وينكل بالمأمون والمعتصم وبنيهما وذريتهما.

في هذا الفصل جاءت الدنيا بالذين لهم الكبرياء في الأرض يعوذون بالإمام. أو يفتنونه فتنة جديدة بالبهرج والمال والرفاه في كنف السلطان.. وقديمًا قال فيليب المقدوني – أبو الإسكندر الأكبر – "كل القلاع تقتحم إذا نفذ إليها جواد يحمل الذهب".

اشتد المتوكل على العلويين سنة ٢٣٦. وكانت بغداد تلعنه صباح مساء والناس يكتبون شتمه على الحيطان والمساجد. وكلما علم بشيء من ذلك زاد وأفحش. لكن يد الخلافة التي لا تطاولها يد تمتد في وقت شدتها طالبة رضاء الشعب.

بعث الخليفة إلى أحمد في سنة ٢٣٧ ليحمل مكرمًا إليه في العسكر.. ولبى الإمام.

وفي الطريق جن عليه الليل فبات بمسجد في موضع يقال له بصري. ولم يرض أن ينزل في خان مشيد على طريق البريد. ثم فوجئ السفر بأمر الرجوع إذ رفع الوشاة أن أحمد يؤوى في داره علويًا. ووجه الخليفة حاجبه الخاص وصاحب البريد ذاته ليفتشا الدار ففتشاها. وفتش النساء امرأتان تعملان لصاحب البريد. ودلوا شمعة في البئر فلم يجدوا شيئًا.

ثم جاء كتاب علي بن الجهم، نديم الخليفة وشاعره، يعلن ثبوت البراءة ويدعو الإمام للقاء الخليفة ويحمل جائزة قدرها عشرة آلاف درهم. وكلمة خاصة من ابن الجهم: إياك.. إياك.. أن تستعفي أو ترد الجائزة.

وقبل أحمد النصيحة ولم يمد بصره إلى الجائزة. وأمر ابنه صالحًا بحفظها عنده حتى يسفر الصبح. وركبه الهم فلم ينم. وجعل يبكي ويتعجب: أسلمت من هؤلاء حتى إذا كان آخر عمري بليت بهم!

وفي الصباح فرق المال في أبناء المهاجرين والأنصار. ثم إلى فلان وفلان ليصرفه كل منهم في ناحيته. حتى الكيس نقضه وتصدق به.

وكتب صاحب البريد إلى الخليفة بتفريق المال في الناس. وهون عليه الأمر علي بن الجهم فقال له وهو ينادمه: يا أمير المؤمنين قد علم الناس أنه قبل منك. وما يصنع أحمد بالمال وقوته رغيف؟ قال الخليفة: صدقت.

وفي العظائم تتجلى أصالة العظماء. ويصدر تفكير الدقيقة الواحدة عن بصيرة أصيلة طال عليها العهد في ممارسة العظمة، واحتمال المسئولية أمام الله والناس. ومن أجل ذلك تعتبر هنات العظماء من الكبر. وتظهر فرطات العلماء، ناصعة بلقاء، كأنها فوق منبر.. أما الأئمة فلا يهفون وإن مشوا في الظلمات. لأنهم يمشون مع الله. يد الله فوق أيديهم.

وصل أحمد إلى المعسكر مدعوًا من الخليفة. فإذا الرجل الذي رفع رأسه في وجوه الجبابرة الثلاثة – المأمون والمعتصم والواثق – يراه الناس يمشي منكس الرأس تواضعًا لله في مقام الانتصار.. وتذكيرًا للمسلمين بالضعف الإنساني في مركز القوة. أو لعله كان يخشى أن تستزله النعمة فيقبل على دنيا مقبلة!

وبعد حين جاءه رسول يقول: "إن أمير المؤمنين يكثر ذكرك ويشتهي قربك.. وأن تقيم هنا تحدث" فأجاب أحمد: أنا ضعيف ووضع يده على بعض أسنانه وقال: إن بعض أسناني تتحرك وما أخبرت بذلك ولدي.

وكان الخليفة قد أمر له بعشر آلاف درهم مكان التي فرقها في الناس وأمر ألا يعلم أحمد بذلك حتى لا يغتم.

ثم صار إليه الوزير يحيى بن خاقان يعرض وظيفة أخرى. قال: إن الخليفة أمر أن تكون لك مرتبة في أعلى المراتب. وأن يكون ولي عهده في حجرك. وأضاف أنه أمر بجراية أربعة آلاف درهم (شهريًا) على أحمد وعلى قراباته.

وفي الغداة صحب الوزير أحمد إلى دار ولي العهد – وكان الخليفة قاعدًا خلف ستر يتطلع دون أن يظهر أحمد عليه. وكانت أم الخليفة إلى جواره – فقال لأمه أن رآه: "يا أماه قد دخل رب الدار أو قد نارت الدار".

ثم جيء بطيلسان وقلنسوة وقميص فألبسه الوزير إياها.

فلما عاد أحمد إلى داره بالعسكر جعل يبكي ويقول: "سلمت من هؤلاء منذ ستين سنة حتى إذا كان آخر عمري بليت بهم! ما أحسبني سلمت منذ دخولي على هذا الغلام فكيف بمن يجب على نصحه من وقت أن تقع عليه عيني إلى أن أخرج من عنده).

* * *

وفي غرف القصور، وإن كانت معاطير، زهمة تزكم الخياشيم وأساطير وسير نقض المضاجع... فلقد عرف الإمام أن الدار التي ينزلها إيتاخ.. وما أدراك ما إيتاخ؟

إيتاخ طباخ ركي، غلام لسلام بن الأبرش – وكان على سجن الرشيد – رأى فيه المعتصم رجله وبأسًا. فشراه وقربه ليضيف به إلى الأتراك الذين اشتراهم سببًا جديدًا من أسباب محنة العرب. ثم ولاه الواثق الأعمال الجليلة – كما يعبر المؤرخون – فكان من أراد ا لمعتصم والواثق والمتوكل قتله سلموه إليه. فقتل سادات العرب: "عجيف" القائد و "العباس" بن المأمون أما محمد بن عبد الملك الزيات.. فحرقه في التنور. وفي سنة ٢٣٤ فوض إليه المتوكل فوق إمارة مصر إمارات الكوفة والحجاز وتهامة ومكة والمدينة بل دعى له على المنابر! لكن هذا الإغداق بالولايات كان ذرًا للرماد في عينيه، ليكلف المتوكل اسحق بن مصعب بالقضاء عليه إذ يرجع من الحج.. فأحيط به وهيض جناحه. واقتيد في الحديد. وقتل صبرًا في سنة ٢٣٥.

استعفى الإمام من البقاء في دار إيتاخ، فاستأجروا له دارًا كالقصر. فاستعفى منها. فاكتريت له دار بمائتي درهم. وضرب له في ضيافة الخليفة الخيش وفرش الطبري.

ولما رأى الحشايا والنمارق والفرش الرافهة تنحى، وألقى بنفسه على مضربة له، وأصر على أن يطعم طعامه العادي. فكان يمكث ليالي ثلاثًا لا يتناول الطعام.

فإذا كانتالرابعة وضع بين يديه قدر ربع سويق فربما شربه، وربما ترك بعضه. وكان إذا ورد عليه شيء يغمه صام ولم يفطر إلا على شربة ماء. فجعل يواصل الصيام ويفطر لك ثلاثة أيام. وعلى تمر.. فمكث خمسة عشر يومًا يفطر كل ثلاث، ولا يفطر إلى على رغيف. فإذا جاءت المائدة نأى بجانبه حتى لا يراها.

فإذا جهده الحرب ألقيت له خرقة فيضعها على صدره.

وكان طبيعيًا أن تسوء صحته وأن يوجه إليه المتوكل طبيبه ابن ماسوية فيرى صحته تسوء فيقول الطبيب للخليفة: إنما هو من قلة الطعام وكثرة الصيام والعبادة. ويقول لأحمد: "يا أبا عبد الله ما بك من علة إلا الضعف". ويجيئه بالدواء فيصبه أحمد ولا يتعاطاه.

وأمر المتوكل بشراء دار له فتخالج في صدره أن بقاءه في القصر مطلوب أن يدوم. فأمر ابنه صالحًا ألا يقرهم على شراء دار أو لصالح. وقال له: لئن أقررت لهم.. بشرائها لتكونن القطيعة بيني وبينك. إنما يريدون أن يكون هذا البلد لي مأوى أو مسكنًا ولم يزل يدفع شراء الدار حتى اندفع.

* * *

وجعلت الرسل تأتيه فرادى ومثانى من قبل المتوكل. وفي خلال اللقاء يقال: لا بد أن يراك – فيسكت. فإذا خرجوا قال: "أما تعجب من قولهم لا بد أن يراك؟ وما علمهم أنه لا بد أن يراني"؟... وكأنما يشير إلى أن له في الرؤية الكلمة، لا للحاشية، ولا يدرك أنهم يهيئون نفسه بما يشبه الهمس إليها بأمر سوف يقع.. فقد جاءه، بعد، رسول يقول: أمير المؤمنين مشتاق إليك ويقول انظر اليوم الذي تصير إليه فيه حتى أعرفه.. قال أحمد: ذلك إليكم...قالوا يوم الأربعاء خال.

لكن الخلاص من اللقاء جاء قبل الأربعاء: إذ أقبل عليه من الغد رجل ينبئه: أن أمير المؤمنين أعفاه مما يكره. وقال الرجل أبشر أمير المؤمنين يقرأ عليك السلام ويقول لك قد أعفيتك من لبس السواد، والركوب إلى ولي العهد، وإلى الدار (القصر). فجعل أحمد يحمد الله عز وجل. وهذه إحدى الدعوات الثلاثة التي استجيب إلى اثنتين منهن هما ألا يلقى المأمون وألا يلقى المتوكل.

ولم يفت رجل الحاشية أن يلتقط شيئًا لنفسه وابنه فقال لأحمد: إن لي ابنًا فأحب أن تحدثه بأحاديث... فرفض.

وأزعجه أن تمد الموائد فيطعم مع الطاعمين ابناه. فهما في رفقته. فجعل بإرجاع ثياب صالح إلى بغداد، وكان انحدر إليها، كيلا يرجع. وقال لعبد الله وهو يحمله ثياب أخيه: "قل لصالح لا تجيء. فأنتم كنتم آفتي. والله لو استقبلت من أمري ما استدبرت ما أخرجت واحدًا منكم معي. ولولا مكانكم لمن كنت توضع هذه المائدة؟".

وزاد جوعًا وهزالاً حتى لنيبه ذات ليلة أبا بكر المروزي – وقد أصبح يسمى خادم الصديقين – ويقول له: "هو ذا يدار بي من الجوع. فأطعمني شيئًا" فجاء أبو بكر بجزء من رغيف فأكل وقال: "لولا أني أخاف العون على نفسي ما أكلت".

وكان يقول: "إني لأتعجب كان قوتي فيما مضى أربعة أرغفة. وقد ذهبت عني الشهوة في الطعام فما اشتهيته! قد كنت في السجن آكل وذلك عندي زيادة في إيماني وهذا نقصان..".

لقد كان مطمئن النفس في السجن فكان يأكل... وزايلته السكينة مع النعمى في أكتاف الخليفة، فصار لا يأكل.

قيل له يومًا لو أمرت بقدر تطبخ لك لترجع إليك نفسك فأجاب: "الطبيخ طعام المطمئنين – مكث أبو ذر ثلاثين يومًا لا طعام له إلا ماء زمزم وهذا إبراهيم التيمي كان يمكث في السجن كذا وكذا ولا يأكل. وهذا ابن الزبير كان يمكث سبعًا".

قال المروزي: منذ دخل العسكر لم يذق طبيخًا ولا دسمًا.

وركبه الهم من محنة النعيم المقيم بجوار الخليفة وإن كان لا يصيب منه. فلم ير لنفسه تحرجًا إلا بأن يتمنى أن يموت.

قال للمروزي: "إني لأتمنى الموت صباح مساء لقد تفكرت البارحة فقلت هذه محنتان. امتحنت بالدين – يقصد في القرآن – وهذه محنة الدنيا".

لا جرم كان صنيع الأستاذ في مخيلة التلميذ حين قال أحمد بن أبي الحواري: "إذا حدثتك نفسك بترك الدنيا عند إدبارها فهو خدعة.. وإذا حدثتك بتركها عند إقبالها فذاك...".

ولقد أحصوا ما رفضه من أموال فكان سبعين ألفًا!

وازداد هزالاً وهمًا.. حتى جاءه الفرج ليخرج من القفص الملكي. وكان علي بن الجهم ويحيى بن خاقان يعملان على إخراجه.. قال علي: يا أمير المؤمنين هذا رجل زاهد لا ينتفع به فإن رأى أمير المؤمنين أن يأذن له؟ ولم يقبل منه الخليفة. لكنه قبل كلام يحيى بن خاقان.

وبعد أيام جاء الإذن بتخلية سبيل الإمام! يحمله عبد الله بن يحيى بن خاقان. ثم جاءوه بحراقة تمخر به عباب دجلة إلى بغداد فرفض فخامة الحراقات. والتمس زورقًا انحدر فيه من ساعته، حتى إذا خرج من النهر إلى شاطئ بغداد وعليه الكساء الذي خلع عليه سقط الكساء، فجعل يجره وما سواه عليه.. لقد كان يكره أن يمسه.

ولم يكد يبلغ داره في بغداد حتى ألقى نفسه على قفاه من التعب والعياء. وأمر أن تباع الثياب التي ألبسها في العسكر والتصدق بثمنها. ولم ترجع إليه نفسه إلا بعد ستة أشهر من رجوعه إلى داره.

ولم تكن الأمور تأذن برضي أو استبشار والخليفة في غمه تشجوه همومه، يبحث لنفسه عن عاصمة جديدة تنجيه من سيطرة الترك في سر من رأي... فهو مرة في دمشق الشام ومرة في المدائن بفارس. والترك تتحين الفرص. والحاشية أوزاع يستوحش كل فريق من صاحبه. والأمة بين هؤلاء وأولاء في ضياع. والمثل الصالحة قليلة تكاد لا تعرف. والعلم يكاد يتمحض وسائل للدنيا. فصار الإمام يبدئ ويعيد في شعاره المجيد: هذا زمان مبادرة.. هذا زمان عمل.

ويحدث أحاديث المسند ويقول للناس: ما كان الناس إلى الحديث والعلم أحوج منهم في زماننا.

* * *

لكن السر الذي أخفاه ابنه وعمه وشارك فيه الخليفة والحاشية ينكشف له: فقد فوجئ بأنهم تجري عليهم جراية من الخليفة.. فحدثهم ألا يأخذوها أو يصطنعوا الحيلة بتوكيل من يأخذها باسمهم. ويروي صالح للأجيال مشهدًا إنسانيًا بين الإمام وأهله جديرًا بتسجيله:

"قال: قد علمت أنكم تأخذون هذا بسببي. فإذا أنا مت فأنتم تعلمون.. فسكت.

قال مالك: قلت أكره أن أعطيك شيئًا بلساني وأخالف إلى غيره فأكون قد كذبتك ونافقتك وليس في القوم أكثر عيالاً مني ولا أعذر. وقد كنت أشكو إليك فتقول: أمرك منعقد بأمري ولعل الله أن يحل هذه العقدة وقد كنت تدعو لي فأرجو أن يكون الله عز وجل قد استجاب لك.

فقال: لا تفعل. قلت: لا.

قال: قم. فعل الله بك وفعل.

ثم أمر بسد الباب بيني وبينه.. فتلقاني عبد الله فسألني فأخبرته. فقال ما أقول؟. قلت ذاك إليك.. فقال له مثل ما قال لي: فقال لا أفعل. فكان منه نحو ما كان منه إلى.. ولقينا عمه فقال لم أردتم أن تقولوا له وما كان علم إذا أخذتم شيئًا. فدخل عليه فقال: يا أبا عبد الله لست آخذًا من هذا شيئًا. فقال الحمد لله...

فهجرنا وسد الأبواب بيننا وتحامى منازلنا. وقد كان قديمًا قبل أن نأخذ من السلطان يأكل عندنا. فلما مضى نحو شهرين كتب لنا بشيء فجئ به إلينا فأول من جاء عمه فأخذ. فأخبر فجاء إلى الباب الذي كان سده بيني وبينه، وقال: ادعوا لي صالحًا فقلت: لست أجيء.. إذا كان توبيخ خصصت به أنا!... فمضى..

فلما نادى عمه بالأذان خرج فلقد كان مؤذن المسجد – فلما فرغ من الصلاة التفت إلى عمه ثم قال: يا عدو الله نافقتني وكذبتني وكان غيرك أعوز منك. ثم هجرة وترك الصلاة في المسجد. وخرج إلى مسجد آخر يصلي فيه".

وكانت الدار لزيقة بالمسجد، فآثر أن يتجشم المسير إلى مسجد سدرة البعيد يصلي فيه الجماعات والجمع.

هذه الوقائع الإنسانية البسيطة تظهرنا على محنة أخرى لأحمد في أهله، ولهم فيه، من جراء أموال السلطان. وعلى مبلغ الصدق في الزهد بتطبيقه على أكباده التي تمشي على الأرض، حتى إذا عجز عن أن يهدي من أحب رضى بقضاء الله في بنيه، وقنع بأن يسد بينه وبينهم الأبواب، وهو يتزاحف نحو الثمانين، فقد مسه الكبر ووهن منه العظم.

لكن أفئدة البنين تخفق وترق. فما أحلى الحوار بين الوالد وولديه وبين الأقدار.. والله يسمع تحاورهم:

يقول صالح: "ثم وجهت إليه ان هذا الأمر طال بيني وبينه وقد اشتقت إليك فشكت.. فأكببت عليه وقلت: يا أبه تدخل على نفسك هذا الغم! قال يا بني هذا ما لا أملكه.. ثم مكثنا مدة لم نأخذ شيئًا. ثم كتب لنا بشيء فقبضناه فبلغه ذلك. فهجرنا أشهرًا.. فكلمه فوران فقال له: لقد كان أحب الخلق إلي. وأي شيء أردت له إلا ما أردت لنفسي! وقلت يا أبه: ومن رأيت ممن

لقيت قوى على ما قويت أنت عليه! قال: وتحتج علي؟ وكتب إلى يحيى بن خاقان يعزم عليه ألا يعيننا على شيء من أرزاقنا. فلما وصل رسوله بالكتاب أخذه صاحب الخبر فأخذ نسخته ووصلت إلى المتوكل فقال: كم من شهر لولد أحمد بن حنبل؟ فقيل عشرة أشهر قال: يحمل إليهم الساعة أربعون ألف درهم ولا يعلم بها أحمد. فوجهت إلى أبي من أعلمه فسكت قليلاً وقال: ما حيلتي إذا أردت أمرًا وأراد الله عز وجل أمرًا"؟

* * *

ومضت الأيام ومن المتوكل ببغداد في طريقه إلى المدائن. فخرجت للقائه يتقدمها العلماء. ولم يخرج أحمد. ونهى صالحًا عن الخروج.

فلما كان بعد يوم جاء يحيى بن خاقان فجعل يخوض في الطين في زقاق أحمد حتى بيته. وعلى البيت ستر هو قطعة خيش.. أما صاحب البيت فعليه كساء مرقوع. فأقرأه سلام أمير المؤمنين. وأنبأه أنه يسأله الدعاء له. وأنه بعث إليه ألف دينار يفرقها على ذوي الحاجة.

قال أحمد: يا أبا زكريا أنا في البيت منقطع عن الناس وقد أعفاني أمير المؤمنين مما أكره.

قال يحيى: يا أبا عبد الله: الخلفاء لا يتحملون هذا كله!

فقال أحمد: يا ابا زكريا لا تلطف في ذلك.

قال يحيى: لو وجه إليك بعض إخوانك.. هكذا كنت تفعل؟ قال نعم.

وانصرف الوزير وودعه صالح. ولما صارا إلى الدهليز قال يحيى لصالح: قد أمرني أمير المؤمنين أن أدفعها إليك تفرقها. قال صالح: تكون عندك حتى تمضي هذه الأيام.

ومكث الخليفة يسأل عنه ويوفد إليه يستشيره في أشياء تقع له. ولما كتب إليه رجل أن يشتم آباءه كتب بيده على الشكوى ما برر القدح فيهم قال:

"أما المأمون فإنه خلط فسلط الناس على نفسه. وأما أبي المعتصم فإنه رجل حرب. ولم يكن له بصر بالكلام. وأما أخي الواثق فإنه استحق ما قيل فيه" وأمر بضرب الشاكي مائتي سوط، فرضبه عبد الله بن إسحق بن إبراهيم خمسمائة! ولما راجعه الخليفة في افتياته في تنفيذ

أمره قال: ضربته مائتين لطاعتك. ومائتين لطاعة الله. ومائة لكونه قذف هذا الرجل الصالح أحمد بن حنبل! هكذا صار أحمد عند ابن اسحق بن إبراهيم وإلى بغداد للمأمون والمعتصم!

وأصبح المتوكل يقول للناس: "لو نشر المعتصم وقال لي فيه شيئًا لم أقبله".

وسيبقى ولاء المتوكل لأحمد حتى بعد موته إذ يشكو صاحب الخبر ما شجر من الفتن بين أتباع أحمد وبين أهل البدع فيقول الخليفة: "لا ترفع لي من أخبارهم شيئًا وشد على أيديهم. فإنهم وصاحبهم من سادة أهل محمد، وقد عرف الله لأحمد صبره وبلاءه ورفع علمه أيام حياته وبعد موته، وأنا أظن أن الله تعالى يعطي أحمد ثواب الصديقين".

وكان ثمة حدث واحد باق حدوثه لتدور الدنيا دورة كاملة بالذين ظلموا الإمام هو جزاء أحمد بن أبي دؤاد في الدنيا.. فتلاحقت عليه المحن من مرض الفالج، إلى غصب الخليفة عليه، وابنه محمد، إلى حبس محمد، إلى بيع ضياعهما. وإذا هذا المعتزلي الطلق اليدين الندي الكفين، الذي باهى المعتصم وصحبه بأنه لا يسأل شيئًا لنفسه، وإنما يسأل للناس، يظهر أن ثروته وثروة ابنه محمد – وكان مسيكًا – قد بلغتا ستة وعشرين مليون درهم وجواهر بقيمة عشرين ألف دينار!

ومات ابن أبي داؤد – الابن – فذهبت نفس أبيه حسرة عليه. فمات بعد أيام عشرين، سنة ٢٤٠، وهو في الثمانين مسجونًا في جلده. كما قال له شامت فيه. وانتهى الاعتزال من وظائف الدولة وراح يعالج سكرات الموت في سائر معاقله.

* * *

لم يكن لأحمد أمل في إصلاح الخليفة أو اتخاذه سبيلاً للإصلاح ولا كان ثمة جدوى في مقاربته.

لقد خلط أبو يسوف حياته بدنيا الرشيد على نقيض نصح أبي حنيفة، فذكر التاريخ زفر على أنه أورع من أبي يوسف. ولئن نجحت تجربة أبي يوسف مع الرشيد، إنها نجحت لصلاح الرشيد أكثر من نجاحها بصلاحية أبي يوسف.

وابن المتوكل من الرشيد.

وأين من لا يسمع ممن كان يسمع. يقول ابن السماك – محمد بن صبيح – (١٨٣) للرشيد: إن لك بين يدي ربك مقامًا. وإن لك في مقامك منصرفًا فانظر إلى أين منصرفك إلى الجنة أو إلى النار.. ويبكي الرشيد حتى يقول المدهنون أرفق بأمير المؤمنين، فيقول ابن السماك: دعه فليمت. حتى يقال: خليفة المسلمين مات مخافة الله. وكان الرشيد يستمع إلى الفضيل بن عياض فيغشى عليه..

وكان الجواري مئات في قصره. لكن منهن مائة يقرأن القرآن فكانت أصواتهن تسمع كدوي النحل. أما جواري المتوكل فمكسالات، وأما السراوي فآلاف من نفس الطراز! ومن الوفاء مشى الرشيد في جنازة أمه وأخذ بقائمة التابوت حافيًا يخوض الطين والوحل من مطر ذلك اليوم. ومن عدم الوفاء الذي بذر بذوره المتوكل شارك ابنه في قتله.

ومن الإسلام كان دخل أم الرشيد ستة آلاف وستين ألف ألف درهم في العام.. تنفقها في الصدقات.. ومن النقيض للإسلام أن تموت أم المتوكل فيظهر عندها خمسة ملايين دينار هي أموال الأمة.

وكانت دولة الرشيد في يده لكن دولة المتوكل كانت في أيدي الآخرين.. فإذا صار له من الأمر شيء، فهو فيه مثل سيء للإسراف والإتلاف والسفك.

لقد أمر بعد استخلافه بأربعين يومًا بوزيره ابن الزيات فسجره إيتاخ في التنور فحرق.. وأخذ أمواله! ومن بعد ذلك عزل قاضي القضاة يحيى بن أكثم وأخذ أمواله (١٠٠ ألف)! وأمر بضرب الكندي، فيلسوف العرب، وأباح مكتبته الشهيرة لبني شاكر المنجم، فنهبوها. حتى إذا جاء دورهم من بطئه لم ينجو إلا بوفاته وكان يستعمل العمال ويستوزر الوزراء وينكبهم..

عزل عمر الرخجي والي دمشق وحبسه، فمات في محبسه. واستوزر الجرجرائي ثم عزله. واستوزر رأبا الوزير ثم عزله ونكبه في مائتي ألف. وكان أقسى بني العباس على أهل البيت. وطغى على أهل الذمة فألزمهم بلبس الطيالسة العسلية وأن توضع على منازلهم صور شياطين! ومن أجل هذا الكيد الذي يستنكره المسلمون ويعتبر صبيانيًا إذ ذكر إلى جوار الذبح للتنصير والذبح للتفتيش عن صحة التنصير! الذي أصاب المسلمين على أيدي محاكم التفتيش بالملايين في أسبانيا. لقب المؤرخون الغربيون المتوكل (نيرون المسلمين).

وربما كان وجه الحق في جملة أمره: أنه كان يغرق همومه في الشهوة، ويخفي خوفه بالقسوة، ويغطي فقره النفسي بمظاهر الغنى والعظمة.. والترك آخذون بناصيته. وهو يكاد يدرك مصيره.

ولم يظهر أحد ما أظهره من الإسراف في أموال المسلمين [١٦٥]– والعبث والهزل وبالمضاحك.. كان له في تشييد القصور تصرفات كالخرافات. ومنها قصران كفاه – وحدهما – مائة ألف جرهم هما الهاروني والجعفري... أما قصر العرويس بسامرا فكلفه ثلاثين ألف ألف درهم. ولا وعجب أن تكون لك نوبة من نوب الفراشين في هذه القصور أربعة آلاف قرش! أو ينام الرجل الذي كان يجب ألا ينام، وهو بين نداماه فينصرفون بما على موائده من قصائد الشعر! بل كان يهاجم الجلساء ويسف ويسخف.

فإذا صحا من خمره فأكثر فكره في جواريه. يهدي إليه محمد بن عبد الله ابن طاهر – نائبه على بغداد – ثلثمائة جارية! وله أربعة آلاف سرية – أو أكثر – أما فراشه فمخصص له خمسمائة وصيفة.. أحظاهن عنده "قبيحة".

خرجت إليه يوم عيد النيروز وفي يدها كأس تساقيه، فتناولها. وقبلها. وإذا على خدها مكتوب "جعفر" ثم اندفعت تغني:

فيا من منالها في السريرة جعفر  سقى الله من سقيا ثناياك جعفرا

وأمر جعفر (المتوكل) عربيًا المغنية فغنت كلماتها.

---

(١٦٥) بلغ مجموع ما أنفقه في بناء القصور مائتين وتسعين مليون درهم هي ثلاثة أرباع دخل الدولة الإسلامية من أقطار العالم – في عام! وكان إيراد المال في عهده في نقصان – بلغ إيراد بيت المال في عهد المأمون ٣٩٠ مليون درهم بما فيه الضرائب العينية وبلغ إيراد بيت المال في عهد المعتصم ٣٨٨ مليون درهم بما فيه الضرائب العينية وبلغ إيراد بيت المال في منتصف القرن الثالث حوالي (٢٩٩.٢٦٥.٠٠ مليون).

وذات يوم طلب إلى شاعره علي بن الجهم أن يقول شعرًا. فقال ثم أمر فضل الشاعرة أن تجيزه فأجازته. ثم أمر معنية فغنته!

لقد تجمعت على عاتق المتوكل مواريث الفساد الشخصي والاجتماعي والسياسي من آبائه، كما تتراكم الأقسام المؤجلة فنحل يوم الحساب. ولم تك صدقة ولكن كان من منطق التاريخ أن تنتهي، عام ولايته، المائة العظيمة من عمر الدولة وتبتدئ قرون الدمار الذي لا راد له.

* * *

فأي مكان لإمام المسلمين في جواره؟ وأحمد يقول لأحمدين سعيد الرباطي: هل بد يوم القيامة من أن يقال: أين عبد الله بن طاهر "وأتباعه". انظر أين تكون أنت منه!

والأئمة يضعون أنفسهم كالقادة في معاركهم حيث لا يأسرهم العدو، أو تفقدهم جيوشهم عند الصدمة الأولى، أو يفقدون قدرتهم على العمل، أو صلاحيتهم للأسوة الحسنة.

قال اسحق بن حنبل ذات يوم للإمام لو دخلت عليه – المتوكل – فإنك تكرم عليه فأجابه: "إنما غمى من كرامتي عليه".

وقال له والخليفة يضيفهم، والإمام يدعو الله ألا يراه: "لماذا لا تدخل عليه تأمره وتنهاه؟ فإنه يقبل ذلك منك. هذا إسحق بن راهويه يدخل على ابن طاهر، يأمره ينهاه".

وأجاب أحمد: "تحتج علي باسحق" فأنا راض بفعله؟ ماله – يقصد المتوكل – في رؤيتي خير ولا لي في رؤيته خير. يجب على إذا رأيته أن آمره وأنهاه. الدنو منهم فتنة والجلوس معهم فتنة. نحن متباعدون منهم وما أرانا نسلم. فكيف لو قربنا منهم".

ولقد تواترت دلائل الصحة في قول الإمام، وهم متباعدون. وتظاهرت عوامل الفتنة على شخص إسحق، وهو غير بعيد. ففتنته أموال الخليفة مثنى وثلاث. أخذها وأخفى أمرها، ولم يصدق يوم أنكر أنه يأخذها، وفتنت الأولاد، فقبلوها على رغم أبيهم، فسد الباب الذي يصله بهم، ولبثوا سنين بعد موته، فزعين من غضباته، كلما جاءهم خير من السلطان.. ولشد ما بكى صالح وهو يتلقى مقاليد القضاء اعتقادًا منه أن عمله يسخط أباه لو رآه.

ولو قبل أحمد ما نبأه به الوزير – أن تصير له مرتبة في أعلى المراتب ويصير ولي العهد في حجره – لما ارتفع أحمد، ولا انتفع المسلمون، وربما كان أحمد قد نزل. وكان لزامًا أن يحدث صدامًا بالمتوكل فيضيع على المسلمين بعض الخير الذي توجه المتوكل تلقاءه.

إن المتوكل سيطلب – بعد موت أحمد بعام – إلى ابن السكيت عالم النحو العظيم رأيه في ابنيه، وقد صار معلمًا لهما، أهما أفضل أم الحسن والحسين؟ فلما أجاب بالحق أمر الترك فداسوا بطنه وقتلوه.

إن ولي العهد هذا سيكون عنوان الدولة التي تدمر نفسها بأعمالها، فيجازي أباه بقتله، ليفوق إجرامه أفظه المثلات في عهد كراكلا (٢١٧) الذي قتل أخاه وولى عرشه، فذبح بعد سنوات ستة طلب في إبانها إلى الفقيه بانيان تبرير فعلته التي فعلها فأجابه: (إن قتلك أخاك أيسر من تبرير الفقيه له) إلى عهد إيرين بعد ثماني قرون تأمر بابنها فتسمل عينه حتى لا يعود إلى منازعتها الملك! والمتوكل وابنه أشبه الناس بنيرون عندما صار إمبراطور الرومان (٥٤–٦٨ ق. م) فتقل معلمه سينيكا

* * *

يقول الله جل ثناؤه: ﴿**وَلْتَكُن منكم أُمةٌ يدْعون إلى الخيرِ ويَأْمُرُون بالمعروف**﴾ فهذا فرض كفاية على الجميع، يسقط عنهم بفعل بعضهم، وللقائم به فضل على الباقين إذ هو يسقط الفرض عن نفسه وعن غيره.

ويقول عليه الصلاة والسلام: "من رأى منكم منكرًا فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان" وإنما وصف التغيير بالقلب بأنه أضعف الإيمان ليكون حضًا للقادر على التغيير بلسانه وبيده على أن يتكلم بلسانه أو يمل بيده.

ويرى أكثر المحدثين وعلى رأسهم أحمد بن حنبل أنه يكفي للقيام بهذا الواجب القلب واللسان إن قدر عليه: ولا يصح الالتجاء إلى القوة: وقد رأى ذلك سعد بن أبي وقاص وأسامة بن زيد وعبد الله بن عمر ومحمد بن مسلمة من عظماء الصحابة إذ اعتزلوا القتال بين علي ومعاوية.

ومن أهم الاعتبارات في الدعوة إلى المعروف أن تكون مثمرة. وألا تؤدي إلى تغالي مرتكب المنكر فيما يفارقه. وهي واجبة عندما تكون محققة النفع دون أن يصيب الداعي ضرر. مستحبة إذا كانت مفيدة وإن أضرت الداعي. وقد تستحب إذا لم تنفع ولم تضر لإظهار شعائر الإسلام وتذكير المسلمين بدينهم. ولما سئل عليه الصلاة والسلام: "ألا تأمر بالمعروف حتى نعمل به كله ولا ننهى عن المنكر حتى نجتنبه كله. أجاب: بل أمروا بالمعروف وإن لم تعملوا به كله. وانهوا عن المنكر وإن لم تجتنبوه كله".

وفي الدخول على الولاة للإرشاد أو الشفاعة كلمة معلمة لعلقمة النخعي أستاذ الكوفة في منتصف القرن الأول. قيل له: ألا تدخل على السلطان فتشفع، فأجاب: لا أصيب من دنياهم شيئًا إلا أصابوا من ديني مثله.

وفي آخر القرن كان عمر بن عبد العزيز – بحكم صلاته بابني عمه وصهريه، الوليد وسليمان ابني عبد الملك بن مروان – لا يألوهما نصحًا. ومع ذلك حبسه الوليد من جراء نصحه، وكل منهما زوج لأخت الآخر! ومن أجل دولة الوليد ولاه على المدينة ثم عزله مؤثرًا فساد الحجاج على صلاح عمر بن عبد العزيز! وضاق سليمان ذرعًا بوعظه، مع اعتزازه به، وكان في وعظه حدة.

كتب سليمان إلى أسامه واليه على مصر: احلب الدر حتى ينقطع واحلب الدم حتى ينصرم" ففعل الوالي بأموال الناس وأشخاصهم أفاعيله. وجلس سليمان يباهي به.

قال الخليفة: هذا أسامة لا يرتشي دينارًا ولا درهمًا.

قال عمر: أنا أدلك على من هو شر منه ولا يرتشي دينارًا ولا درهمًا.

قال الخليفة: ومن هو؟

قال عمر: عدو الله إبليس.

فغضب سليمان وقام من مجلسه.

وفي القرن الثاني قيل لسفيان الثوري ألا تدخل على الولاة تعظهم وتنهاهم؟ فأجاب: "تأمرني أن أسبح في بحر ولا تبتل قدماي. إني أخاف أن يرحبوا بي فأميل إليهم فيفيد عملي" وكتب لعابد من العباد: اعلم يا أخي أنك في زمان كان أصحاب رسول الله ﷺ يتعوذون أن يكونوا فيه. ومعهم من العلم ما ليس معنا، ولهم من القدم ما ليس لنا، فكيف لنا حين أدركناه

على قلة العلم وقلة الصبر وقلة الأعوان على الخير وفساد الزمان. فعليك بالأمر الأول.. وإياك يا أخي.. يقال لك تشفع أو تدرأ عن مظلوم فإن ذلك من خديعة إبليس. وإنما اتخذ ذلك القراء سلمًا للقرب منهم واصطياد الدنيا بذلك..

يقول ذلك سفيان من نحو قرن مضى وفي عهد المهدي، وأبي جعفر، عهد العلم والوقار وأين منهما المتوكل [١٦٦].

* * *

مثل أحمد أهل السنة في موقفه من خلق القرآن فانتسبت إليه الأمة، بما فيها المعتزلة الذين تركوا نحلتهم، والجماهير التي أعلنت غضبها على هذه النحلة، وكثيرًا ما استفزتها مغاضبة المعتزلة (الجهمية). وإنها لأكثر غضبًا إذا صدمها الاستهتار بعقيدتها على أبواب مسجد.

---

(١٦٦) ويوضح سفيان الطريق للنصحاء فيقول (لا يأمر السلطان بالمعروف إلا رجل عالم بما يأمر وينهى. رفيق بما يأمر وينهى. عدل في ذلك) فالعالم يميز الحرام من الحلال ويقدر على توضيح جانب المصلحة قبل أن يأمر. والرفيق يسلك السبل الحسنة إلى الأنفس بالحكمة إذ يأمر. والعدل لا يميل في الأمر بل يقضي بما للسلطة للسلطة وما لله لله. وهو حليم بعد الأمر إذ يتحمل التبعة. يقول تعالى عن لقمان (يا بني أقم الصلاة وأمر بالمعروف وأنه عن المنكر واصبر على ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور).

والقادر على التغيير يسبق الجميع في مطالبة الشرع له إذ يملك إعادة الجائزين إلى الجادة، وهو في الأسرة وليها، وفي القبيلة زعيمها، وفي الولاية واليها. وفي الدولة ولي الأمر ونوابه. أي السلطة ذاتها. والسلطة وحدها هي المسئولة عن تغيير المنكر بالقوة. لأنها تملك وحدها القوة ولا يشركها الأفراد في استعمالها، وإلا وسد الأمر إلى غير أهله فأوضعوا الفتنة في خلال الناس.

وفقه السنة لا يزيل المنكر بما هو أنكر منه.

ويروي أحمد في المسند لا يحل لثلاثة يكونون بفلاة من الأرض إلا أمروا أحدهم) وعلى يقول: (لا بد من إمارة برة أو فاجرة) قالوا يا أمير المؤمنين البرة عرفناها فما بال الفاجر:؟ فأجاب (تقام بها الحدود وتأمن بها السبل ويجاهد بها العدو ويقسم بها الفيء).

ويروي: يوم من إمام عادل أفضل من عبادة ستين سنة.

ولقد شجبت الجماعة الإسلامية دائمًا قيام الجماهير ومنها الحنابلة الحشويون بتغير ما استنكروه بأيديهم وتعرضهم لغيرهم في أشخاصهم.

ومن ذلك قيام الناس يوم الجمعة لثلاث بقين من ربيع الأول سنة ٢٢٧ والمعتزلة في أوجهم بالهجوم على رجلين من الجهمية (نفاة الصفات) وضربهما وإذلالهما ثم مضت الجماهير إلى مسجد شعبوية وهو اللقب الذي أطلقته الجماهير على شعيب بن سهل بن كثير (٢٤٦)، وكان يقول بقول جهم ويبغض أهل السنة ولا يقبل لهم صرفًا ولا عدلاً، ثم تمادى وكتب على مسجده عبارة (القرآن مخلوق) فهاجمته جموع من أهل السنة فأحرقوا بابه وانتهبوا منزله وحدثت معركة بينهم وبين حراسه الذين رموهم بالنشاب.

مثل أحمد أهل السنة في موقفه من خلق القرآن فانتسبت إليه الأمة، بما فيها المعتزلة الذين تركوا نحلتهم، والجماهير التي أعلنت غضبها على هذه النحلة، وكثيرًا ما استفزتها مغاضبة المعتزلة (الجهمية). وإنها لأكثر غضبًا إذا صدمها الاستهتار بعقيدتها على أبواب مسجد.

ومن ذلك قيام الناس يوم الجمعة لثلاث بقين من ربيع الأول سنة ٢٢٧ والمعتزلة في أوجهم بالهجوم على رجلين من الجهمية (نفاة الصفات) وضربهما وإذلالهما ثم مضت الجماهير إلى مسجد شعبوية وهو اللقب الذي أطلقته الجماهير على شعيب بن سهيل بن كثير (٢٤٦)، وكان يقول بقول جهم ويبغض أهل السنة ولا يقبل لهم صرفًا ولا عدلاً، ثم تمادى وكتب على مسجده عبارة (القرآن مخلوق) فهاجمته جموع من أهل السنة فأحرقوا بابه وانتهبوا منزله وحدثت معركة بينهم وبين حراسه الذين رموهم بالنشاب. وفي العام التالي عزل شعبوية.

وفي العهد ذاته كان الحنابلة يتعرضون لأصحاب البدع وتتدخل السلطة لكف عدوانهم لكن المتوكل لم يكن يقبل ضدهم شكاة على ما أسلفنا [١٦٧].

---

(١٦٧) وتجلى جموح الحشوية من العامة وخروجهم على النظام في مهاجمتهم لإمام عظيم من الأئمة هو محمد بن جرير الطبري إذ دخل بغداد في الأربعينات من القرن توافًا إلى أحمدوعاجلت المنية الإمام فلم يلقه، ولم يعرف فقهه، فاستمر في طوافه يروح ويغدو على بغداد فقصد إليه جماهير من الحشوية فسألوه عن حديث الجلوس على العرش وعن عدم ذكر، أحمد بن حنبل في كتابه اختلاف الفقهاء حيث ذكر اختلاف مالك والأوزاعي على العرش وعن عدم ذكر، أحمد بن حنبل في كتابه اختلاف الفقهاء حيث ذكر اختلاف مالك والأوزاعي والشافعي وأبي حنيفة مع أبي يوسف ومحمد بن الحسن ثم أبي ثور، وذكر بعض فقهاء الصحابة والتابعين إلى أثناء المائة الثانية ولم يذكر أحمد. ويحكي أنه أجاب (إن أحمد لم يكن فقيهًا وإنما كان محدثًا) وفي قول آخر أنه أجاب: (أن أحمد بن حنبل لا يعد خلافه) وأنهم قالوا: فقد ذكروه في الاختلاف فقال: (ما رأيته روى عنه ولا رأيت له أصحابًا يعول عليهم – وأما حديث الجلوس على العرش فمحال) وأنشد:

سبحان من ليس له أنيس ولا له في عرشه جليس

فلما سمع الحشوية ذلك أخذتهم الحمية – وقد مر بنا أن أحمد ومذهبه حرب على التشبيه والتجسيد والحشو والعنف – فرموا الطبري بمحابرهم. وكانت آلافًا. ورموا داره بالحجارة حتى صار على بابه كالتل وركب "نازوك" صاحب الشرطة في ألوف من الجند تحمي الطبري. ووقف على بابه يومًا.. وأمر برفع الحجارة فكتبت الجماهير على بابه شعرًا يحوي معنى الجلوس على العرش.

واعتكف الطبري في داره، وعمل كتابه المشهور في الاعتذار إليهم وكرر مذهبه واعتقاده كأئمة السنة وقرأ الكتاب عليهم. وفضل أحمد بن حنبل – وذكر مذهبه وصوب اعتقاده. ثم ذكر في تفسير الآية الكريمة رأي هذا البعض من الحنابلة. وآثر عليه رأي عدم الجلوس الفعلي. وأضاف أن القول بأن الله يقعد على عرشه محمدًا ﷺ قول غير مدفوع من جهة الخبر والنظر. ولم يزل في ذلك إلى أن مات مخالفًا للمعتزلة فيها يخالفون فيه أهل السنة من القول بالقدر، أو القول بخلق القرآن أو إبطال رؤية الله يوم القيامة.. أو تخليد أهل الكبائر في النار.. أو إبطال شفاعة الرسول وما إلى ذلك من أقوالهم.

ومع ذلك منعت العامة دفنه إذ مات سنة ٣١٠ لتألب هذه الجماعة عليه فدفن ليلاً، وفي سر، في داره. وكما سلف القول لم تذع مدونات أصحاب أحمد إلا في القرن الرابع.

وقد لفتت إمامة أحمد للمحدثين أنظار المؤرخين فذكر، ابن النديم في الفهرست في المحدثين وذكر، المقدسي في أحسن التقاسيم. ولم يذكر، البعض في اختلاف الفقهاء كالطحاوي الدبوسي والعلاء السمرقندي ولم يذكر، ابن عبد البر في الانتقاء رابعًا للأئمة الثلاثة الفقهاء.

وفي نحو النصف الثاني من القرن الثالث حمل غلام خليل (٢٧٥) المحدث الحنبلي على الصوفية وشغب عليهم العامة واتهمهم بالزندقة وسعى عند والدة الخليفة حتى سجن نيف وسبعون منهم وهرب البعض وحكم البعض وراعت الخليفة شجاعتهم فبعث بهم إلى القاضي فراعته عبادتهم. فكتب إلى الخليفة: "إن كان هؤلاء زنادقة فليس في الأرض موحد".

وفي مطلع القرن الرابع شاع تجاوز الحشويين والجماهير معهم فكانت السلطة تعيدهم – بحق – إلى الجادة بقول ابن الأثير (في سنة ٣٢٣) "عظم أمر الحنابلة وقويت شوكتهم وصاروا يكبسون دور القواد والعامة وإن وجدوا نبيذًا أراقوه أو مغنية ضربوها وكسروا آلة الغناء واعترضوا في البيع والشراء ومشى الرجل مع النساء أو الصبيان فإذا رأوا ذلك سألوه عن الذي معه من هو؟ فإن أخبرهم وإلا ضربوه وحملوه إلى صاحب الشرطة وشهدوا عليه بالفاحشة. فأرهجوا بغداد وركب صاحب الشرطة ونادى في بغداد "لا يجتمع من الحنابلة اثنان ولا يناظرون في مذهبهم ولا يصلى منهم إمام إلا جهر باسم الله الرحمن الرحيم في صلاة الصبح والعشاءين" فلم يفد فيهم. واستظهروا بالعميان الذين كانوا يأتون المساجد وكانوا إذا مر بهم شافعي المذهب أغروا به العميان.. حتى يكاد يموت – وبنوا مسجدًا في بغداد يجتمع فيه الشغابون. فخرج توقيع الخليفة الراضي بما يقرأ على الحنابلة ينكر عليهم فعلهم ويوبخهم باعتقاد التشبيه وغيره، ومما جاء في هذا التوقيع: (تارة تزعمون أن صورة وجوهكم القبيحة السمجة على مثال رب العالمين. ثم طعنكم خيار الأمة. ثم استدعاؤكم المسلمين إلى الدين بالبدع الظاهرة...)

وكان البرهاوي (علي بن خلف أبو محمد) (٣٢٩) – شيخ الحنابلة في هذا العصر من علماء الأصول شديد الإنكار على أهل البدع. زُهدًا تنزه عن سبعين ألف آلت إليه من ميراث أبيه. وكانت بغداد في عهده كالمقفلة لا تتسع إلا لنفوذ الحنابلة. واستمر لهم هذا النفوذ في بغداد وفي قصر الخلافة حتى ليأمر الخليفة بدفن البرهاوي إلى جوار.

ولم يشفع لأبي الحسن الأشعري إعلانه الأخذ بعقيدة أحمد إذ لم تقبل الجماهير منه أن يضيف كلمة إلى ما قاله أحمد فترك المقام ببغداد.

# الفصل الثاني

# حكم الأمة

صوت الشعب وصت الله

مثل لاتيني

- بيت احمد
- صوت الشعب

حياة العظماء العادة أو الخاصة جماع سلوكهم اليومي، في حالات من العمل الإنساني الدارج... وهي بكثرتها وتنوع وجوهها، مع الارتجال على البديهة، ووضوح الغريزة، من أدل أعمالهم عليهم. وأنفذها إلى الأفئدة.

يقول بوسوية: "ألا بعدًا لأولئك الأبطال الذين لا إنسانية فيهم. إنهم قد يثيرون إعجابنا ككل شيء خارق للطبيعة. لكن قلوبنا ليست معهم".

وغنما تتعلق الأنفس بالأئمة لأن وسيلتهم هي تبادل المحبة. ومن ثم سحر القدوة.

والطريقة الجميلة وعاء بديع الصنع للأفكار النبيلة.. وحسن الأداء زيادة كبرى في الأداء. ومضاعفة للوفاء.

كان عليه الصلاة والسلام أحسن زوج وأحنى أب وأصدق صاحب.. حياته الشخصية هي المستوى البشري لأداء الرسالة.. قالت أم المؤمنين عائشة "كان خلقه القرآن"..

وأحمد قد جهد جهده ليقارب بخلقه السنة.

بيت أحمد:

بلغ زواج أحمد الغاية لرجل يعمل بقول الرسول ﷺ: "أكمل المسلمين إيمانًا أحسنهم خلقًا" وقوله: "خيركم خيركم لنسائه – وأنا خيركم لنسائي" وكان النساء اللواتي تعاقبن على حياة أحمد جديرات به. زهدن زهده وصبرن صبره، وقنعن بدريهمات الطرز المؤجرة، وغزلت كل منهن بيدها لتستوفي النفقة. وكان يحمل غزلهن إلى من يبيعه ليهب هو حياته كلها لله. من ثلثمائة ركعة في اليوم، إلى الجلوس إلى التلاميذ، مع المخصمة والقناعة، عشرات الأعوام لا مجرد أيام أو شهور.

وبورك للشيخ في حياة الفقر الذي آثره. وأضاف إليه ثراء القيم العالية وتوازن النفس المطمئنة الخالصة لحياته العامة ومواقفه الشاقة. فكان طبيعيًا في كل موقف، وإن كان الموقف غير طبيعي.

والزوابع تواجه السطح ولا تزعزع الأعماق. ولا تزلزل من كان الله معه.

أما زوجته العباسة بنت الفضل فأم ولده صالح. ولعل صالحًا كنى أبا الفضل من اسم أبيها. وقد سربلت الإمام وابنهما بما يجدر بهما من الرعاية، وجزى الإمام فضلها من فضله فعلمها، فأصبحت من الروايات عنه في حياته، ولما انتقلت إلى رحمة ربها عطر ذكرها بقوله: (أقامت معي "أم صالح" ثلاثين سنة ما اختلفت أنا وهي في كلمة).

ولم يطل به اللبث بعدها دون زواج. فبادر فبعث من يخطب بنت عم له – في قول – ورجعت الرسول... فسألها: أكانت أخت لها ذات فرد عين (عين واحدة) تسمع الكلام؟ قالت بلى.. قال "عودي فاخطبيها" ولما بنى بريحانة – ذات العين الواحدة – قالت بعد أسبوع له: كيف رأيت يا ابن العم؟ لعلك أنكرت شيئًا؟ قال لا. إلا أن فعلك تصر.

لقد كان ينكر دلال العروس بنعل صرارة، إذا كانت عروس أحمد، ولو كان الصرير داخل داره!

ومن ريحانة ولد له عبد الله ويكنى أبا عبد الرحمن. وعاشت معه أم عبد ا لله – على الأرجح – أيام تعذيبه ومنعه من الجلوس للناس واختفائه. ولعلها في أعوامها الأخيرة شهدت تغير الحال في بداية عهد المتوكل. ولما وافاها الأجل [١٦٨] بنى بجاريته حسن في اليوم التالي للوفاة. وكان قد تخطى السبعين. فهو قد دخل بحسن قبل عام أو نحوه من رحلته إلى المعسكر في سنة ٢٣٧.

ولعل "حسنًا" رزقت بغلام في كل عام، بل هي قد استفتحت فولدت توأمين ماتا عقب ولادتهما، ثم ولدت حسن الحسن ومحمدًا وزينب وسعيدًا – وتكنى زينب "بأم علي".

وكأنما أراد أحمد أن يوصي صالحًا بالصغار أو يعتذر له إذ وهبهم على الكبر. فقال له مشيرًا إلى حسن أو سعيد إذ جاءه يومًا: كل ما أخذ الله تعالى ميثاقه فلا بد أن يخرج إلى الدنيا.

* * *

ولعل من أظهر دروس الإمام في أسرته برهنته – كدأبه – بعمله الشخصي على احترام الحياة الزوجية. فلا يقدم على الزواج إلا أن يستطيعه مع الإنصاف، ولا يجمع بين زوجتين. بل

---

(١٦٨)

كانت له دائمًا زوجة واحدة، وبرهنته وأهله على النجاح الكريم للحياة الزوجية، يتراءى في وثاقة العلاقة بين الشيخ وأزواجه، وزهدهن كزهدة في حين لم يستطع ولداه صبرصا معه.

ولقد يلاحظ أن ليس في داره او أخباره أمهات لهؤلاء الزوجات. وأنهن كن أبكارًا إذ يبني بهن.. فلقد كان هذا منهجًا له لا صدفة.. يسأله تلميذ عن التزويج فيقول له: "تزوج ببكر – واحرص على ألا يكون لها أم".. يقول أحمد ذلك وهو الذي كان ينظر إلى عمل النبي في كل شأن خاص ليقتدي به. ولم يكن أكثر زوجاته اللائي بنى بهن عليه الصلاة والسلام أبكارًا. والحرص على البعد عن الحماة تضييق. فلعلها تجارب الشيخ الشخصية الناجحة لم يضن بها على السائل.

ولا تظهر الحماة لزوجات أحمد في صفحات حياتهن، ذلك أن أم أحمد تظهر في عهد الطب وحده. وعهد الطلب وعهد العزوبة عنده مقترنان. لكن ذكريات أمه ظلت تهيمن على نفسه وترفرف في أجواء داره حتى آخر حياته.

وفد على الدار ابن أخت لها من مرور الشاهجان بخراسان يدعى أبا أحمد. فعلا الدار البهاء. وتجلت في هشاشة الإمام وبشاشته كرامة قراباته على نفسه. وما هو إلا إكرام العروة التي تجمع بينهما. دعاة الإمام إلى دار ولده صالح – حيث يرتاح زائر غير زاهد – فأولم له. واجتمع اثنان أحدهما قادم من المشرق البعيد يحدوه شوق قطع لأجله آلاف الفراسخ وثانيهما مقبل من قمة المجد الديني والإنساني معًا. يتلاقيان على ذكريات إنسانية مؤنسة من الأمهات أو الخالات أو الرحلات أو بني شيبان أو خراسان أو كلها مجتمعة. ويجلسان إلى طعامهما مجلسًا خاصًا بهما. فالخصوصية في هذا المقام غاية في الإكرام وآية في الأناقة.

أما أطباق المائدة والذوق في تقديمها فحدثنا عنها زهير بن صالح قال:... فجاءت الجارية بطبق عليه خبز وخل وملح. ثم جاءت بغضارة فوضعتها بين أيدينا فيها مصلية، فيها لحم وسلق كثير. فجعلنا نأكل وهو يأكل معنا، ويسأل أبا أحمد عمن بقى من أهلهم بخراسان في خلال ما يأكل. فربما استعجم الشيء على أبي أحمد فيكلمه جدي بالفارسية. ويقطع اللحم بين يديه ويدي. ثم رفع الغضارة بيده فوضعها ناحية. ثم أخذ طبقًا إلى جنبه بين يديه. فإذا تمر برى وجوز مكسر. فجعل يأكل وفي خلال ذلك يناول أبا أحمد. ثم غسلنا أيدينا كل واحد منا يغسل يده لنفسه.

فالإمام يقدم لزائره طبقًا بعد طبق. ويولم بشاة مصلية (مشوية) فذلك دأب العرب بل الأعراق في البادية. والإمام يعلم الناس بصنيعه الذوق الأنيق والاعتدال الكريم والسخاء المؤنس

بما يتيسر. والذوق في ألوان طعامه التي سردناها عصري أبدًا – في الشرق والغرب على موائد العامة إذا أولموا، وأخونه الأثرياء إذا طعموا، ما لم يتكلفوا بهرجًا أو تعاظمًا.

ومن الإمتاع والمؤانسة أن يقدم بيده لزائره ولحفيده.

ومن التواضع الأنيق أن يغسل كل واحد يده بنفسه وإن كان ثمة جد وحفيدة أو كان بينهما زائر.

ومن الذوق الدقيق تحديث زائره بلغته وطلب الأنباء عن أهله ووطنه.

* * *

ومن التلاميذ من كانت الدار مألفًا له – يحظيه الإمام بعناية خاصة. كان أبعد التلاميذ رحلة إليه بقى بن مخلد إذ أقبل من الأندلس يلتمس حديثه، فإذا هو ممنوع من الاجتماع بالناس في أيام الواثق. فاحتال بقى فصار يخالس السلطة إلى لقاءات معه. فيحدثه الإمام بالحديث والحديثين حتى هلك الواثق وولى المتوكل، فكان أحمد يعرف لبقى صبره ويقص خبره على الآخرين.

وفي ذات يوم اعتلى الأندلسي البعيد الدار عن وطنه، فعاده أحمد في فندقه.. وإذا الفندق قد ارتج بأهله فصاروا يقولون: "هو ذاك... أبصروه.. هذا إمام المسلمين". ويضيف بقى "فبدر إلى صاحب الفندق مسرعًا.. ودخل أحمد وجلس عند رأسي، وقد احتشى البيت من أصحابه فلم يسعهم، حتى صارت فرقة منهم في الدار، وهم وقوف وأقلامهم في أيديهم فما زاد على هذه الكلمات "يا أبا عبد الرحمن أبشر بثواب الله. أيام الصحة لا سقم فيها. وأيام السقم لا صحة فيها. أعلاك الله إلى العافية ومسح عنك بيمينه الشافية..." فرأيت الأقلام تكتب ألفاظه ثم خرج فأتاني أهل الفندق يلطفون بي ويخدمونني ديانة وحسبة.. فواحد يأتي بفراش وآخر بلحاف. وبلطائف من الأغذية.. وكانوا في تمريضي أكثر من تمريض أهلي لي لو كنت بين أظهرهم لعبادة الرجل الصالح لي".

* * *

جلس أحمد سنواته الأخيرة بداره يسمع منه ابناه صالح وعبد الله، وحنبل ابن عمه وعمه، والبعض من الخاصة أو الجيران كابن منيع – الحفيد – إذ تشفع له جده ليسمع جزءًا من المسند. فحمل صالح فقه أحمد. وحمل عبد الله المسند وصار روايته الأساسي. وبهذا حفظ التاريخ اسمي صالح وعبد الله بين العلماء الفحول.

كان صالح موفور السخاء.. اقتصد مدة ودعا إخوانه يومًا. وأنفق في الوليمة نحوًا من عشرين دينارًا.. وإذا أبوه يدق الباب. قال صحبه: أسبل علينا الستر لا نفتضح ولا يشم أبو عبد الله رائحة الطيب ففعل. ودخل أبوه فقعد في الدار وسأله عن حاله وأعطاه دراهم قائلاً: "خذ هذه الدراهم فأنفقها اليوم". وقام فخرج. فسألوا صالحًا: لم أردت أن تأخذ الدراهم منه؟..

وإنما أخذ صالح الدراهم لأن أباه أعطاه إياها من أجل هذه الوليمة – فلم يكن إسبال الستر كافيًا ليمتع شيم الأضياف – وإنفاق هذه الدراهم في الوليمة يصلحها لهم. ولعل الإمام أراد أن يشركه الاحتفال بضيفه، أو يعلمه أن الإسراف لا يحمل به. وأن الدراهم تكفي عنخ الدنانير للولائم، إذا كانت ولائم الفقهاء. أو لعله خير الجهد: جهد المقل.

عين صالح قاضيًا لأصفهان بعد موت أبيه فدخل مسجدها الجامع وصلى ركعتين. واجتمع الناس وقرئ العهد الذي كتبه له الخليفة. فاستهل يبكي فلا يرقأ له دمع. واخضلت لحيته ولحى الشيوخ الذين قربوا منه. فلما فرغ من قراءة العهد جعل الشيوخ يقولون: "ما ببلدنا أحد إلا ويحب أبا عبد الله – أباه – ويميل إليك".. يحسبون أنه يخشى الوحشة منهم. فقال: "أتدرون ما أبكاني؟.. ذكرت أبي أن يراني في مثل هذه الحال – وكان عليه السواد رداء الوظيفة – وكان

أبي يبعث خلفي إذا جاءه رجل زاهد أو متقشف لأنظر إليه. يجب أن يراني مثله. ولكن الله يعلم ما دخلت في هذا الأمر إلا لدين قد غلبني وكثرة عيال أحمد".

ولقد قام صالح في إخوته حتى وفاته سنة ٢٦٥ مقام أبيه حقًا.

خلف صالحًا ولده زهير (٣٠٣) فصار من المحدثين عن أبيه: يقول الدار قطني: زهير ثقة. وحسب زهير أن يشهد له الدار قطني. ولزهير أخ هو أحمد بن صالح. ولأحمد هذا ابن هو محمد بن أحمد (٣٣٠) يروي عن عمه زهير.

فهذه قرون أربعة في الإسلام تملؤها أسماء الفقهاء العظماء في دين الله من بني شيبان.

أما عبد الله بن أحمد بن حنبل فقد درس على أبيه ثم على كثيرين غير أبيه. قالوا إنه درس على أربعمائة شيخ. وحسبه من تراث العظمة خلوده خلود المسند الأعظم.

يقول فيه أبوه: "ابني عبد الله محظوظ من علم الحديث – أو من حفظ الحديث – لا يكاد يذاكرني إلا بما لا أحفظ". وقد روى عنه أبوه! وله كتاب السنة وكتاب الجمل والواقعة وكتاب سؤالاته أباه.

سألوه إذ أدركته الوفاة أين يدفن؟ فأجاب: صح عندي أن بالقطيعة نبيًا مدفونًا ولأن أكون في جوار نبي أحب إلى من أكون في جوار أبي..

قيل توفي سنة ٢٩٠ عن سبعة وسبعين عامًا. وصلى عليه زهير.

وأما سعيد – وقيل إنه ولد قبل موت أبيه بنحو خمسين يومًا – فعاش في كنف إخوته وقيل ولي القضاء بالكوفة ومات قبل سنة ٢٩٠.

ولم يهمل أحمد زينب – أم علي – فلقد رآه اسحق بن إبراهيم يضربها على اللحن.. وقد كبرت وتزوجت.

* * *

عبر الغمام عتبات الخامسة والسبعين من سنوات الحياة – في خلافة المتوكل – وكأنما كانت كل سنة جديدة يفتتحها، عقبة يقتحمها، في مضاضة الذي يمسه الضر من فساد الزمان. ويدهره الجزع عن أهل الإسلام. وكأنما كان الغد كتابًا مفتوحًا بين يديه يقرأ صفحاته ويسمع صيحاته. وأمسى تستبد به وحشة العزلة التي صيره إليها تعاقب الأجيال. برودة القمة العالية التي تفرد فيها. فصار كالمغترب. هزل الزهد بدنه. وأدق الحدب على المسلمين حسه. وهو يرجع القريض وكأنما يسجع اللحن الحزين:

إذا ما مضى القرن الذي أنت فيهمو  وخلفت في قرن فأنت غريب

وتمضي الأيام وسني والشيخ في حالة انتباه كامل بذكر الله وإبهاماه تضربان عليه من أثر التعذيب.. يسخن له الماء، ويعمل أهله مرهمًا له بمنزل عمه إسحق مخافة أن يدس إليه السم ابن أبي دؤاد. والأوجاع تلازمه من أثر الضرب وإذا عرى ظهره للشمس بان أثره على ظهره.

والأمة تحس إذ هو على وجه الأرض كأنه موضع القسطاس منها يمنع جانبيها أن يميلا:

وفي ذلك العهد كان يقول لصالح: "والله لقد أعطيت المجهود من نفسي ولوددت أني نجوت من هذا الأمر كفافًا لا لي ولا علي".

وهذه الكلمات إن دلت على القناعة وإنكار الذات فهي أدل على شجاعة الصابر الشاكر. وهي أعلى درجات الشجاعة. لأنها ليست شجاعة ساعة، بل هي شجاعة كل ساعة. وليست جسارة بدنية تستطاع بالاندفاع، أو بالجلد الموقوت. وإنما هي تقدير فكري وعملي مستمر – ومعاناة للضغط الذي يعدل ثقله أوزان الفساد في العالم. ولا يوازنه إلا الرجاء في فضل السماء، والرضا بالقضاء بعد وقوعه، والتوكل على الله وشكره في كل حال.

وتمضي الأيام... والإمام في هم ناصب من أجل المسلمين.

وحسن في شغل به. تجهد جهدها لتدخل على قلبه البهجة. وكانت كسابقتيها صناعًا تغزل له ثيابًا حسنة. وهو يأبى لبسها ويدفعها إلى فوران يبيعها..

وذات يوم استبقى ثوبًا كبيرًا. قال: لا تبيعيه. فقطعت الغليظ منه واستبقت الباقي له.. فأبقاه.. يريد ليهيئ لنفسه كفنه.

* * *

حل أول أيام السنة الثامنة والسبعين من حياة الإمام فأعلن لبنيه أنه دخلها، وحم من ليلته، فألم به المرض في الأيام الأولى من ربيع الأول سنة ٢٤١. وانكب عليه أهله يوصبونه.

أحمد بن حنبل

ووصف له الطبيب قرعة تشوى ويسقى ماءها. فلم ينس المريض أن ولديه ما تزال تجري عليهما جراية المتوكل. وأن الله تبارك وتعالى قدم الأكل الطيب على العمل الصالح نفسه حيث قال: ﴿**كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ واعملُوا صالِحًا**﴾ فخاف القرعة تشوى في دار ولديه فلا يكون ماؤها طيبًا. ونادى صالحًا فقال له: لا تشو في منزلك ولا منزل أخيك عبد الله.

وخفت حاشية الخليفة إلى بغداد تعوده.. فحجبهم صالح عن الدخول عليه. وتقاطر الناس وتحشدوا. فأخبر أباه. فسأله: فأي شيء ترى؟ وأجاب صالح تأذن لهم – يدعون لك وينصرفون. فجعلوا يدخلون أفواجًا يدعون له ويسألونه الدعاء لهم.

وكانت ساعة الدهر تدور فسارع يؤدي ديونه في الدنيا.. كفارة يمين. فقال يوم الثلاثاء لصالح: انظر في خريقتي شيء؟.. قال درهم.. قال وجه فاقتض بعض السكان – مستأجري طرزه – فوجه فاقتضى منهم شيئًا. فقال له: وجه فاشتر تمرًا وكفر عني كفارة يمين. وبقى ثلاثة دراهم أو نحوها فحمد الله. ثم قال: اقرأ على الوصية فقرأها عليه. وكانت قد كتبت في العسكر من سنوات أربع، أيام كان يستعجل الموت مكروثًا بجوار المتوكل. ومنها يتبين الرصيد الدائن والرصيد المدين لسبعة وسبعين عامًا عاشها إمام المسلمين. قال:

"بسم الله الرحمن الرحيم.. هذا ما أوصى به أحمد بن حنبل. أوصى أنه يشهد أنه لا إله إلا الله وحده لا شريك له. وأن محمدًا عبده ورسوله أرسله بالهدى والحق ليظهره على الدين كله. وأوصى أن لعبد الله بن محمد المعروف بفوران نحوًا من خمسين دينارًا. وهو المصدق فيما قال.

فيقضي ماله من غلة الدار. إن شاء الله. فإذا استوفى أعطى ولد صالح كل ذكر وأثنى عشرة دراهم. بعد وفاة مال أبي عبد الله".

كان سداد دينه همه، كهيئة الفاروق حين حضره الموت، فدعا ابنه عبد الله بن عمر فقال له: اضمن ديني فضمنه لأن تركة أمير المؤمنين كانت تحتاج لضامن.

وأول ما تنطق به الوصية أن مال إمام المسلمين لم يزد درهمًا في سنوات سبعة وسبعين قضاها على قيد الحياة..! وأن الميراث الذي خلفه له أبوه هو الذي يخلفه لصغاره بديون تعدل إيراده كله خمس سنين. وإن دريهماته لم تكن تكفيه الكفاف حتى لم يتمكن في السنوات الأربعة الأخيرة من سداد الدين كله أو بعضه.

وأنه يضع فوران وفضله أمام الدنيا. فلقد طالما يسر شئون الحياة العادية له في أوقاتها الحرجة [١٦٩].

ولا يظهر أبناء عبد الله في الوصية فلعله لم يكن قد أنجب. أو لم تكن سنه تأذن له عندئذ بأن يتزوج. وهو إذ تزوج أصهر إلى قوم مياسير.

---

(١٦٩) دخل فوران أبو محمد (٢٥٩) التاريخ بوصية أحمد ليظل دليلاً على أنه (لا يذهب العرف بين الله والناس) فهو قد لزم أحمد منذ القرن الثاني للهجرة كرجل المهام الخطيرة في الحياة المنزلية الصغيرة – ا لتي قد تطيش من جراء متاعبها أحلام العلماء.

كان يسهر عليه وهو مريض. ويقرضه إذ يحتاج إلى قروض. ويظهر في جوار، وفي خدمة دار، إذ يبيع غزل الزوجات، وكلما ظهر في أفق بني شيبان نجم جديد. فيمضي إليه الإمام في السحر فيقعد على بابه ولا يدق الإمام الباب حتى لا يوقظه في غير ميعاده. حتى إذا خرج فوران للصلاة قام الإمام فقال جاءنا مولود. ثم يمضي لصلاته. ويصلي فوران. ثم يخرج إلى السوق فيشتري ما يصلح للنساء ويبعث على الدار.

فليست الخدمات مقصورة على الولادات، فأحمد قد تزوج في مطالع القرن الثالث للهجرة. وفوران يخدمه من قبل ذلك. روى فوران أن أحمد مرض قبل المأيتين وعاده علي بن الجعد. فجعل على رأسه صرة وقام. فلما أعلمه بها فوران قال أحمد: كما رأيته فاذهب فردها إليه فذهب فردها.

والصلات مستمرة بين أحمد وتلميذه – روى عبد الله بن أحمد أن رجلاً وضع بين يدي ابنه خوانًا عليه منديل أبيض وهو مبادرًا فلما وضعها قدام أبيه سأله أبوه أي شيء هذا؟ أمن منزل أبي محمد؟ يعني فوران. قال: لا – رجل وضعه مر. فسكت ساعة ثم قال: ابعث إلى منزل عمك وصبيان صالح – ثم أومأ إلى أهله وصبيانه وأضاف وخذ أنت.

ولا تظهر أسماء سائر الأبناء فقد رزق بهم في السنوات الأخيرة.

ومن ناحية أخرى فالإمام يسوي في العطاء بين الحفدة بنين وبنات.

وما هو إلا الحنان والرحمة يتجليان مرة أخرى في وصية إمام المسلمين بالمرأة، في ساعات الأخيرة. ولقد كان آخر ما وصى به النبي عليه السلام ثلاثًا كان يتكلم بهن حتى لجلج لسانه وخفى كلامه قال: "الصلاة – الصلاة – وما ملكت أيمانكم لا تكلفوهم ما لا يطيقون. الله الله في النساء فهن عوان في أيديكم أخذتموهن بأمانة الله".

وكان أحمد يقول لصالح إذا ولدت لصالح بنت: "الأنبياء أولاد بنات" ويقول له: "قد جاء في البنات ما قد علمت" أيًا كان الأمر في الوصية فالدراهم العشرة الموصى بها في العسكر لكل حفيد لم تكن إلا رمزًا لمعان تذكرهم بها وهو يرفض عشرات الآلاف. ويتمنى أن يموت مخلفًا لهم هذه الذكريات وحدها.

* * *

صوت الشعب:

تقاطر المسلمون على البيت بالليل والنهار فلقد كان حدث الأحداث في تاريخ دار السلام [١٧٠]. ووكل السلطان الشرطة بباب الدار وباب الزقاق، وسد الناس الشوارع. وتعطل الباعة عن البيع والشراء. فكان البعض يتسلقون الدور وطرز الحاكة المجاورة ليدخلوا دار الشيخ يلقون إليه بالمودة. وتواتر أصحاب أخبار الخليفة وأصحاب أخبار محمد بن عبد الله بن طاهر، نائب الخليفة ببغداد. يسألون عن أنباء الإمام. وعمن يعالجونه. وجرت البرد بأنبائه بين بغداد وبين الخليفة بالعسكر.

وجاء بنو هاشم فجعلوا يبكون.. فأذن لبني هاشم فدخلوا.

وجاء قوم من القضاة وغيرهم فلم يأذن لهم صالح.

---

(١٧٠) كانت سامرا مقر الخلافة. ولم يمت ببغداد خليفة منذ أنشئت سنة ١٤٥. فالمنصور مات بالحجاز والمهدي بماسبذان والهادي بقرقيسيا والرشيد بطوس والأمين خارج بغداد والمأمون بالبندون والمعتصم في سامرا حيث استقر الخلفاء وتبعهم ذرية المعتصم حتى عاد مقر الخلافة في القرن الرابع إلى بغداد.

وجعل الداخلون يتخافتون الكلام بينهم.. والبعض يدعون له بقولهم: أعطاك الله ما تريد لأهل الإسلام. فكان يجيب. استجاب الله لك.. فإذا خصه داع بالدعاء رد عليه قائلاً: ولجميع المسلمين.

وإذا دخل عليه رجل ممن كان في قلبه شيء منه، أغمض عينيه، كالمعرض، ولم يسلم عليه إذا سلم.

ولما آذنوه بقدوم تلميذه – وخليفته في الحلقة – عبد الوهاب الوراق قال: عز علي بمجيئه في الحر. ولما دخل عليه أخذ بيده. فلم تزل في يده حتى قام.

وجهد جهده ليقول بلسان ثقيل يوم الأربعاء أو يوم الخميس "ادعوا الصغار" فجعلوا ينضمون إليه.

وجعل يشمهم. ويمسح بيده على رؤوسهم. وعينه تدمع ويقول ما كنت أصنع بالولد على كبر السن؟ قيل له: ذرية تكون بعدك يدعون لك. قال: "ذاك إن حصل".

وجعل يدعو الله تعالى.

* * *

وبرحت الأوجاع به. فطلب إلى عبد الله أن يخرج كتاب عبد الله بن إدريس ليخرج منه أحاديث ليث بن إدريس فقرأ حديث: "ابن إدريس عن ليث عن طاوس أن النبي عليه الصلاة والسلام كان يكره الأنين في المرض".

فما سمع لأحمد أنين حتى مات.

ولم تعد الصلاة ثلثمائة ركعة أو مائة وخمسين في اليوم بل أصبحت محاولة لنفس مطمئنة تهيئ صاحبها للجنة. لا يكاد يفتر عن الصلاة وهو قاعد أو مضطجع. ويرفع يده في إيماء الركوع

وجاء خادم لعمه إسحق بن حنبل يروحه من الحر. فأشار إليه بيده ألا يفعل. إذ كان عمه قد اشتراه بأموال الخليفة.

وازداد البرح شدة يوم الخميس، وطلب الوضوء، فوضأه أبو بكر المروزي فقال وهو يوضئه: خلل الأصابع.

هكذا لا يفوته الكمال في حق نفسه وهو في آخر لحظات حياته. ولا يفوته في حق المسلمين أن ينههم على عدم التساهل في العبادة أو الطهارة. وكأنما يحصل لنا في اللحظات الأخيرة منهاجه كله: العمل قبل القول والحرص على الكمال.

ولما كانت ليلة الجمعة ثقل. فأوصى بالشعرات الثلاث من شعرات النبي، اللواتي لا يفارقنه، أن توضع على كل عين شعرة وعلى لسانه شعرة.

ثم أسفر الصبح يوم الجمعة ١٢ من ربيع الأول. ومضى من النهار ساعتان.. وقبض الإمام.

* * *

كان الشيعة في بغداد خصومًا شدادًا لأشهر الأئمة بالإمامة في السنة.. لكن مائة من بني هاشم حضروا غسله. وكانوا يقبلون جبهته عند رفعه على سريره. ويأتون بأولادهم يقبلونه وهو مسجى في أكفانه.

وسأل الأمير محمد بن عبد الله بن طاهر: من يصلي على الإمام؟ قال صالح: أنا... فلما خرجوا به بادرهم الأمير فصلى عليه، هو! فكان الخليفة المتوكل يغبطه.. ويقول له: طوبى لك صليت على أحمد.

ومشى في جنازة أحمد ألف ألف نفس. وقيل ألف ألف وثلثمائة ألف. وفيمن مشى ستون ألفًا من النساء يشيعن إمام الرحمة، ومنهن العارفات بره بالمرأة. فهن يشيعنه ذاكرات شاكرات في أول يوم من أيام آخرته.

أما أهل العلم فقال قائلهم بعد أن دفن أحمد: "دفن اليوم سادس خمسة: أبو بكر وعمر وعثمان وعلي وعمر بن عبد العزيز وأحمد".

أما علي بن المديني فيعتبره ثاني اثنين أولهما أبو بكر.. يقول: "إن الله أعز الدين برجلين ليس لهما ثالث أبو بكر يوم الردة وأحمد بن حنبل يوم المحنة".

والمزني يقفه مواقف الخلفاء الراشدين الأربعة في أعظم مواقف الإسلام بعد موت الرسول فيقول (أحمد بن حنبل هو أبو بكر يوم الردة وعمر يوم السقيفة وعثمان يوم الدار وعلي يوم صفين).

وأما الجماهير فقد جذب أبصارها إلى أعلى، هذا الشهاب الذي اختفى، تاركًا أضواءه في الأفق. تعلمها أن رحيل العظيم عن الدنيا يكلل ظهوره الذي بلور الفضائل الإنسانية بين يديها. وأحال الآمال والخطرات إلى نظريات. وجعل الأقوال أعمالاً شامخة كالجبال.. وبهذا كان تاريخ العالم مجمع تواريخ عظمائه.

* * *

استقبل أبو خنيفة حياة الخلود يوم مات في سجن أبي جعفر. وازداد مالك علوًا في ضمير الزمان يوم عذبه جعفر بن سليمان والى أبي جعفر. وبدأ الشافعي الصعود من محنته بين يدي الرشيد.. لكن الإمام الرابع كان حظه من الامتحان كحظ السابقين مجتمعين.

محنًا أربعة على أيدي خلفاء أربعة، في مدى بضع عشرة، في أبواب شتى للعذاب، كانت بأسباب وقوعها وتتابعها ومشاركة الأمة فيها، وبجلال صبره وشكره، أسرع في نباهة الشأن وأبقى في ضمير الزمن.

يقول كارليل – من أكثر من مائة عام – "لو خيرت إنجلترا بين الهند وبين شكسبير، لاختارت على رغم الساسة – شكسبير. فالهند، جوهرة التاج، قد تذهب، أما شكسبير فباق أبدًا".

وأين شكسبير وأترابه في مجد الفكر وخلوده من منازل الأئمة! وإنما يقال في هؤلاء: إن من الرجال من كان أجدى على الإنسانية من إحدى القارات الخمس.

مشت الجماهير مهما ناءت بها أحمالها فلم تستطع الارتفاع إلى مستوى الدقائق العلمية، لا تخذلها غريزتها في إدراك مصلحتها. فهي تهرول إليها حينًا، وتثاقل دونها أحيانًا لكنها تتجه تلقاءها على الدوام.

ولما عبر اللاتين من أكثر من عشرين قرنًا بأن "صوت الشعب صوت الله" كانوا ينطقون عن حكمة القرون. فضمير الجماهير يقين الجماعة. ويد الله مع الجماعة.

ولما تلاقى عند أبواب عالم الخلد أعظم جمع في تاريخ الأمة يجتمع في حرب أو سلم أو نصر أو هزيمة كان يسترجع ذكريات قرنين ونصف قرن، هي أعظم زمان عرفه أو سيعرفه الزمان.

فيه عصر محمد بن عبد الله نفسه ﷺ. وثلاثون عامًا أو نحوها من أبي بكر وعمر وعثمان وعلي. وثلاثون شهرًا أو نحوها من خامس الخلفاء الراشدين عمر بن عبد العزيز.

وفيه قرن كامل ترتفع فيه أعلامهم عالية على أيدي أبي حنيفة ومالك والشافعي وأحمد ابن حنبل. رضي الله عنهم أجمعين.

# فهرست المراجع


١- مناقب الإمام أحمد: ابن الجوزي

٢- تاريخ الإسلام: الحافظ الذهبي

٣- المسند: شرح أحمد محمد شاكر.

ترجمة الإمام أحمد

٤- طبقات الحنابلة: القاضي أبو الحسين محمد بن أبي يعلى.

٥- اختصار طبقات الحنابلة: المقدسي.

٦- أحمد بن حنبل حياته وآراؤه: الشيخ محمد أبو زهرة.

٧- محاضرات في تاريخ المذاهب الفقهية: الشيخ محمد أبو زهرة.

٨- أحمد بن حنبل بين محنة الدين والدنيا: أحمد عبد الجواد الدومي.

٩- ابن حنبل: محمد رجب البيومي

١٠- الإمام الممتحن: محمد البهي الخولي

١١- الأئمة الأربعة: دكتور أحمد الشرباصي

١٢- المدخل إلى مذهب الإمام أحمد بن حنبل: ابن بدران الدمشقي.

١٣- دليل الطالب لنيل المطالب على مذهب الإمام أحمد: مرعي بن يوسف المقدسي.

١٤- قوت القلوب: أبو طالب المكي (محمد بن علي بن عطية الحارثي)

١٥- أحمد بن حنبل والمحنة وولتر ملفل باتون ترجمة عبد العزيز عبد الحق.

١٦- تاريخ التشريع الإسلامي: محمد الخضري

١٧- تاريخ التشريع الإسلامي: الأساتذة السبكي – السايس – والبربري.

١٨- السنة ومكانتها في التشريع: مصطفى السباعي

١٩- التقريب: محيى الدين النووي.

٢٠- علم مصطلح الحديث: محمد عبد الرحمن قراعة

٢١- الجرح والتعديل: جمال الدين القاسمي الدمشقي

٢٢- التوحيد ا لذي هو حق المولى على العبيد : محمد بن عبد الوهاب.

٢٣- الفقه على المذاهب الأربعة: طبعة وزارة الأوقاف.

٢٤- أصول الفقه: محمد الخضري

٢٥- آداب الشافعي ومناقبه – محمد بن أبي حاتم الرازي.

٢٦- المدخل في التعريف بالفقه الإسلامي: الشيخ محمد مصطفى شلبي.

٢٧- تعليل الأحكام: الشيخ محمد مصطفى شلبي.

٢٨- محاضرات في أصول الفقه: الشيخ محمد زكريا البرديسي.

٢٩- محاضرات في تاريخ الفقه الإسلامي: الشيخ أحمد فرج السنهوري

٣٠- المصلحة (مخطوط في مكتبة كلية القانون والشريعة): دكتور حسين حامد

٣١- الموافقات: الشاطبي

٣٢- أعلام الموقعين: ابن الجوزية

٣٣- زاد المعاد : ابن قيم الجوزية

٣٤- القصور العوالي من رسائل الغزالي:

٣٥- ابن تيمية: دكتور محمد يوسف موسى

٣٦- السياسة الشرعية: ابن تيمية

٣٧- السياسة الشرعية: ابن تيمية

٣٨- كتاب العقود (مطبوع بعنوان نظرية العقد) عن ابن تيمية

٣٩- المسودة في أصول الفقه: آل تيمية

٤٠- نظام النفقات في الشريعة الإسلامية: أحمد إبراهيم

٤١- نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام: دكتور علي سامي النشار.

٤٢- أدب المعتزلة إلى نهاية القرن الرابع: دكتور عبد الحكيم بلبع.

٤٣- بصائر ذوي الألباب: الفيروز أبادي

٤٤- طبقات الصوفية : دكتور أحمد الشرباصي.

٤٥- الطبقات الكبرى: الشعراني.

٤٦- سير أعلام النبلاء: الحافظ الذهبي

٤٧- تاريخ بغداد: الخطيب البغدادي.

٤٨- الكامل: ابن الأثير.

٤٩- البداية والنهاية: ابن كثير

٥٠- النجوم الزاهرة في أخبار ملوك مصر والقاهرة: ابن تعزى بردي

٥١- شذرات الذهب في أخبار من ذهب: العماد الحنبلي

٥٢- الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية: ابن الطقطقي.

٥٣- معجم الأدباء: ياقوت.

٥٤- فجر الإسلام: أحمد أمين.

٥٥- فجر الإسلام: أحمد أمين

٥٦- ضحى الإسلام: أحمد أمين

٥٧- ظهور الإسلام: أحمد أمين

٥٨- هرون الرشيد: أحمد أمين

٥٩- زعماء الإصلاح: أحمد أمين

٦٠- المغني الجزء الأول: ابن قدامة المقدسي

٦١- الدولة الإسلامية: عبد الحميد العبادي – مصطفى زيادة

٦٢- حضارة الإسلام في عز العرب: محمد كرد علي.

٦٣- مختار الأغاني: ابن منظور – طبعة جامعة الدول العربية.

٦٤- دائرة المعارف البريطانية (مادتي فقه – ابن حنبل):

Encyclopoedia Britianica

٦٥- تاريخ تأخر وسقوط الإمبراطورية الرومانية (جبون):

History of the Decline and Fall of the Roman Empire Gibbon.

٦٦- التاريخ العام:

General History P. V. N. M. Collidge Hall Ohio - 1906

٦٧- تاريخ أوروبا منذ سقوط الإمبراطورية الرومانية (جيزو):

Histoire de l'Europe, depuis la Chute de l'Empire Romain M. Guizot.

٦٨- خلاصة تاريخ الأمة القبطية: لجنة التاريخ القبطي طبعة سنة ١٩٣٢.

٦٩- عصر المأمون: دكتور أحمد فريد رفاعي.

٧٠- المأمون: دكتور محمد مصطفى هدارة.

٧١- ابن قتيبة: دكتور عبد المجيد سند الجندي.

٧٢- الجاحظ: دكتور أحمد كمال زكي.

٧٣- الطبري: دكتور أحمد الحوفي.

# فهرست الأحاديث


( من ازداد علما ولم يزدد هدى ازداد من الله بعداً ) ٩٣
( من تعلم علماً لغير الله أو أراد به غير الله فليتبوأ مقعده من النار ) ٩٤
( إيتونى بكتاب أكتب لكم كتاباً لا تضلوا بعده ) ١٨٧
( إذا لم تستحي فاصنع ما شئت ) ١١٧
( الحياء لا يأتى إلا بخير ) ١١٧
( إن من كلام النبوة الأولى . . . الحديث ) ١١٧
( إن أحبكم إلى وأقربكم منى مجالس يوم القيامة . . » الحديث » ) ١٠١
( إن أحبكم إلى وأقربكم منى من لقينى على مثل الحال التى فارقتكم عليها ) ١٣٣
( من لبس ثوب شهرة ألبسه الله ثوب ذلة يوم القيامة ) ١١٥
( لا يدخل الجنة من كان فى قلبه مثقال حبة من خردل من كبر . . . » الحديث » ) ٩٧
( يا معشر قريش اشتروا أنفسكم من الله . . ) ٣٣٨
( من أصبح منكم آمناً فى سربه معافى فى جسده عنده قوت يومه فكأنها حيزت له الدنيا بما فيها ) ١٣١
( إن الله جميل يحب الجمال . . الحديث ) ٩٧
( يا عائشة : إخوانى أولو العزم من الرسل صبروا على أشد من هذا . . » الحديث » ) ١٣١
( إن أحق الشروط أن توفوا به ما استحللتم به الفروج ) ٢٦٨
( سئل عن الإيمان فقال : الصبر والسماحة ) ١٥٢
(من تطبب ولم يعرف منه طب فهو ضامن ) ٢٨٥
(كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته . . . » الحديث » ) ١٠٦
( حسبك من الخدم . . . . الحديث » ) ١٣٣
( عالم قريش يملأ طباق الأرض علماً ) ٦٦
( ما أنثا بأقوى على المشى منى وما أنا بأغنى عن الأجر منكما ) ١٤٤
( الحلال بين والحرام بين . . . » الحديث » ) ٢٠١
( شعار المسلم على الصراط رب سلم . سلم ) ١٤٧
( يؤتى بالقاضى العدل يوم القيامة . . . . » الحديث » ٣٢
( روحوا القلب ساعة بعد ساعة . . . » الحديث » ) ١١٠

( لا ضرر ولا ضرار ) ٢٨٩
( من حسن إسلام المرء ترك ما لا يعنيه ) ٢٠١
( دع ما يريبك إلى ما لا يريبك ) ٢٨٣
( من كذب على متعمداً . . . « الحديث » ) ١٨٦
( إنما الأعمال بالنيات . . . « الحديث » ) ٢٠١ — ٢٧٤
( إن هذا لأول يوم انتصف فيه العرب من العجم . وبى نصروا ) ٣٠
( الحمد لله الذى جعله عذباً فراتاً برحمته . . . « الحديث » ) ١٣٢
( الق الله تعالى فقيراً ولا تلقه غنياً ) ١٥٠
( لاطلاق ولا عتاق فى إغلاق ) ٢٧٤
( لا يكون المؤمن مؤمناً حتى يرضى لأخيه ما يرضاه لنفسه ) ٢٠١
( العارية مؤداة ) ٥٢
( ليس لمجنون ولا لسكران طلاق ) ٢٧٣
( خير الناس مؤمن فقير يعطى جهده ) ١٥٦
( إن المنبت لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى ) ١٢٠
( هلك المتنطعون ) ١٢٠
( ما نقصت صدقة من مال ) ١٣٣
( نعم الإدام الخل ) ١٣١
( أفضل الناس مؤمن مزهد ) ١١
( أيكم مال وارثه أحب إليه . . . « الحديث » ) ١٣٣
( قليل الدنيا يلهى عن طريق الآخرة ) ٨٤
( المسلمون عند شروطهم . . الحديث ) ٢٦٢
( المسلمون تتكافأ دماؤهم ويسعى بذمتهم أدناهم وهم يد على من سواهم ) ١٨٧
( لا يستغاث بى وإنما يستغاث بالله ) ٣٢٤
( إن الرقى والتمائم والتولة شرك ) ٣٢٤
( من اشترط شرطاً ليس فى كتاب الله فليس له . وإن اشترط مائة شرط شرط الله أحق أن يتبع ) ٢١٣
( إن أصبت فلك أجران وإن أخطأت فلك أجر ) ٢١٣
( ألا إن الغضب جمرة ) ٢٧٤
( طوبى لمن هدى للإسلام وكان عيشه كفافاً وقنع ) ١٣١ — ١٣٧
( لا يبلغ الرجل درجة المتقين حتى يدع ما لا بأس به حذراً لما به البأس ) ١١٩

( أمك . . . ثم أمك . ثم أبوك ) ٣٨
( عليكم بسنتى وسنة الخلفاء الراشدين بعدى ) ٢٣٠
( من رغب عن سنتى فليس منى ) ١٥٧
( إن مثل أصحابى فى أمتى كالملح . « الحديث » ) ٢٣٣
( المؤمن للمؤمن كالبنيان المرصوص . . « الحديث » ) ٢٦٩
( اللهم أسألك الرضا بعد القضاء ) ١٥٣
( لفضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب ) ١٢٩
( رباط يوم خير من صيام شهر وقيامه ) ١٣٠
( بعثت لأتمم مكارم الأخلاق ) ١٥٦
( قدمتم من الجهاد الأكبر إلى الجهاد الأصغر ) ١٢٠
( إن أطيب الكسب كسب يد التجار . . . « الحديث » ) ١٤٧
( خير الكسب كسب العامل بيده إذا نصح ) ١٤٧
( أربعة تجرى عليهم أجورهم بعد الموت . . الحديث ) ١٣٠
( مثل أمتى كالمطر لا يدرى أوله خير أم بآخره ) تقديم — ٢٥٣
( إن العلماء ورثة الأنبياء . . « الحديث » ) ١٢٩
( نهى النبى عليه الصلاة والسلام عن بيع وشرط وعن بيع وسلف وعن شرط ) فى شرط ٢١٣
( من أصبح منكم معافى فى سربه معافى فى جسده عنده قوت يومه فكأنما حيزت له الدنيا بما فيها )
( سئل عن الأمر ليس فيه قرآن وسنة فقال : أجمعوا له العالمين ) ٢٣٦
( من أحب أن يتمثل له الناس قياماً — . . « الحديث » ) ١١٤
( لا يدخل الجنة من كان فى قلبه مثقال حبة من كبر . . . ) ٩٧
( أما أبو جهم فضراب للنساء . . « الحديث» ) ٢٢٦
( مالى وللدينا . . . « الحديث» ) ١٣١
( هذا خير من أن تجىء المسألة نكتة فى وجهك . . . « الحديث » ) ١٤٧
( لا تطرونى كما أطرى النصارى ابن مريم ) ٣٢٥
( إن من شرار الناس من تدركهم الساعة وهم أحياء . . « الحديث » ) ٣٢٥
( كل معروف صدقة . . ومن المعروف أن تلقى أخاك بوجه طلق ) ١٠٤
( إن الله يحب السهل الطلق الوجه ) ١٢٧
( إنما أنا بشر وإنكم تختصمون إلى . ولعل بعضكم أن يكون ألحن من بعض . . . « الحديث » ) ٢٧٠
( إن الله يحب أن تؤتى رخصه كما يحب أن تؤتى عزائمه ) ٢٦٢

أحمد بن حنبل

( من لم يقبل رخص الله كان عليه من الإثم مثل جبال عرفة ) ٢٦٢
( لا يقتطع عبد أو رجل بيمينه مالا . . « الحديث » ٢٦٢
( نحن من ماء ) ٣١١
( إن بالمدينة رجالا ما سرتم سيراً — ولا قطعتم وادياً إلا كانوا معكم ) ٢٧١
( لا تقطع اليد فى غزو ولا عام سنة ) ١٥٨
( الق الله فقيراً ولا تلقه غنياً ) ١٥٠
( أسعد الله جدك ) ٤٨
( من اطلع فى كتاب أخيه بغير أمره فكأنما اطلع فى النار ) ١٠٢
( إذا ما بعت فقل لا خلابة ولى الخيار ثلاثة أيام ) ٢٧٦
( أنتم الطلقاء ) ٤١٢
( إياكم والغلو فقد هلك من قبلكم بالغلو ) ٢٦٢
( الحلال ما أحله الله فى كتابه والحرام ما حرمه الله فى كتابه وما سكت عنه فهو مما عفا عنه ) ٢٦٢
( يا أيها الناس من قبل الرخصة فإن رسول الله قد قبلها . . . « الحديث » ) ٢٦٢
( انظر إليها فإنه أحرى أن يؤدم بينكما ) ٢٨٦
( نعمتان مغبون فيهما أكثر الناس الصحة والفراغ ) ١٥٠
( دخلت النار امرأة فى هرة . لم تطعمها ولم تدعها تأكل من حشائش الأرض ) ١٦٢
( تفكر ساعة خير من قيام ليلة ) ١٦٩
( إن الله غفر لامرأة مومسة مرت بكلب على رأس ركى يلهث . . « الحديث » ) ٦٢
( لا تتخذوا قبرى عيداً . وصلوا حيثما كنتم ) ٣١٨
( اللهم لا تجعل قبرى وثناً يعبد ) ٣١٩
( لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد ) ٣١٨
( لا تتخذوا قبرى عيداً ) ٣٢٥
( زوروا القبور ) ٣١٨
( خذوا من الأعمال ما تطيقون ) ١٢٠
( لا تجلسوا على القبور ولا تصلوا عليها أو إليها ) ٣١٨
( إن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق ) ١٢٠
( لن يشاد أحد هذا الدين إلا غلبه ) ١٢٠
( الجهاد الأكبر مجاهدة هواه العبد ) ١٢٠
( شعار المسلم على الصراط . رب سلم . سلم ) ١٤٧

( إذا أدرك الرجل ماله بعينه . . . « الحديث » ) ٢٢٩
( نحن من ماء ) ٣١٢
( من أعمر رجلا عمرى « الحديث » ) ٢٢٩
( من كذب على متعمداً فليتبوأ مقعدة من النار ) ١٨٦
( لا إسراف فى الخير ) ١١٩
( لعن الله المحلل والمحلل له ) ٢٧٨
( لو بعت من أخيك تمراً فأصابته جائحة )
( مر عليه الصلاة والسلام بسعد وهو يتوضأ فقال لا تسرف فى الماء . . « الحديث » ) ١١٩
( كان عليه الصلاة والسلام يكره الأنين فى المرض ) ٤٦٩
( لاتناجشوا ) ٢٦٣
( خير القرون قرنى ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم ) ٢٢٩
( إن الله اختار أصحابى على جميع العالمين . . ) ٢٣٠
( أصحابى كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم ) ٢٣٠
( من ستر مؤمناً فى الدنيا على قربته ستره الله يوم القيامة ) ٦١
( اجتنبوا السبع الموبقات . . « الحديث » ) ٣٢٥
( قليل تؤدى شكره خير من كثير لا تطيقه ) ١٥٠
( الق الله فقيراً ولا تلقه غنياً ) ٥٠
( أفبهذا أمرتم . أن تضربوا كتاب الله بعضه ببعض ) ٣٦٢
( لا تماروا فى القرآن فإن مراء فيه كفر ) ٣٦٢
( المكثرون هم المقلون يوم القيامة ) ١٥٠
( لا يكن أحدكم إمعة . . . « الحديث » ) ٣٢٧
( لا يبلغ الرجل درجة المتقين حتى يدع مالا بأس به حذراً لما به البأس ) ١١٩ — ١٦٠
( المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً ) ٢٦٩
( يا زبير إن باب الرزق مفتوح بباب العرش ) ٣٣٤
( لعن الله زائرات القبور والمتخذين عليها المساجد والسرج . . . ) ٣٢٥
( من رأى من أميره ما يكرهه فليصبر . . . ) ٤٠١
( سيكون عليكم أمراء يفسدون وما يصلح الله بهم أكثر . . ) ٤٠١
( من لم يدع قول الزور فليس لله حاجة فى طعامه أو شرابه ) ١٥
( من أحق الناس بحسن صحابتى . . . « الحديث » ) ٣٨

( من رأى منكم منكراً فليغيره . . . « الحديث » ) ٤٥٢
( من قتل عصفوراً عبثاً . . « الحديث » ) ١٦١
( لا يحل لثلاثة يكونون بفلاة . . . « الحديث » ) ٤٥٢
( شربتان فى شربة وإدمان فى قدح . . . « الحديث » ) ١٣١
( من تطبب ولم يعرف منه طب فهو ضامن ) ٢٨٥
( اشترى منى رسول الله ناقة . . « الحديث » ) ٢١٣
( أكمل المسلمين إيماناً أحسنهم خلقاً . . . « الحديث » ) ٤٥٢
( لأن يأخذ أحدكم حبله فيأتى الجبل . . . « الحديث » ) ١٤٥
( لا تكتبوا شيئاً عنى سوى القرآن . . . ) ١٨٧
( أأمروا بالمعروف ولو لم تعملوا به كله . . . « الحديث » ) ٤٥٢
( اشترى بريرة واشترطى الولاء . . ) ٢١٣
( إن قامت الساعة وفى يد أحدكم فسيلة . . « الحديث » ) ١٤٤
( ليس الشديد بالصرعة . . . . . « الحديث » ) ٤٣٤
( صاحب الشيء أولى بحمله ) ١٤٥
( لا تأكل حتى تعلم أن كلبك قتله ) ١٦٠
( كنا نفاضل بين أصحاب الرسول . . « الحديث » ) ١٦٥
( لأن يخطئ الإمام فى العفو أحب إلى من أن يخطئ فى العقوبة ) ٣٦٨
( الإمام الجائر خير من الفتنة . . . « الحديث » ) ٤٠١
( من أتاكم وأمركم جميع على رجل واحد يريد أن يشق عصاكم فاقتلوه )
( إن من كلام النبوة الأولى إذا لم تستح فاصنع ما شئت ) ١١٦
( صاحب الشيء أولى بحمله ) ١٤٥
( ما أنثى بأقوى على المشى منى . . . ) ١٤٥
( الإيمان الصبر والسماحة ) ١٥٢
( خير الناس مؤمن فقير يعطى جهده ) ١٥٦
( إن الغضب جمرة فى قلب ابن آدم ) ٢٧٤
( لا طلاق ولا عتاق فى إغلاق ) ٢٧٤
( فضل العالم على العابد كفضل القمر فى ليلة الكواكب ) ٣٢٠
يا معشر قريش اشتروا أنفسكم من الله . . ) ٣٢٥

# فهرست الأعلام


( ا )

الأشرف العادل ٣١٩
إبان بن عبد الحميد ٨٢
إبراهيم النخعى ٢٦٠
إبراهيم الموصلى ٧٨
إبراهيم التيمى ١٤٠
إبراهيم بن إسحق الحربى ١٩٩–٢٠٩–٣٠٦
إبراهيم بن أدهم ٨٥ — ١٣٣
إبراهيم بن المهدى ٧٨ — ٢٨٢
إبراهيم بن أبى الليث ٤٠٥
إبراهيم بن سعد ٦٤
إبراهيم بن شماس ١٥ — ٤٠
إبراهيم بن طهمان ١٦٣
إبراهيم بن عبد الله ١٧
إبراهيم بن هشام ٤٢٩
إبراهيم بن هانئ النيسابورى ٩٨ — ٣٠٥
إدريس بن جعفر العطار ٢٨٨
ابن أبى الحديد ٣٦١
ابن أبى ذئب ٧٠
ابن أبى ليلى ( محمد ) ٢١٣
ابن الأثير ٢٨ — ٤٥٥
ابن نظير ٣٤٨
ابن سنان ٣٤٨
ابن أبى الدنيا ٣٧٥
ابن الذيال ٣٧٥
ابن البكاء ٣٨٣
ابن أبى حاتم ٧٠
ابن إدريس ٤٦٩
ابن جريج ١٨٨
ابن حزم ٢١٦
ابن حبان ٢٠١
ابن خزيمة ٢٠١
ابن الرومى ٢٥
ابن أبى الليث ٤٢٤
ابن العربى ٢٢٠ ط ٢٢١
ابن العميد ١٦٤
ابن أبى الورد ١٥٣
ابن الفرخان ٣٨١
ابن الفارض ٣٤٢
ابن دقيق العيد ٢٨٨
ابن حبان البستى ٢٠١
ابن الجزرى ١٩٢
ابن الجوزى ١٥٣ — ٢٤٤
ابن رأس الجالوت ٣٤٨
ابن رشد ٣٤٣
ابن الرومى ٢٩
ابن سيرين ٦٤ — ١١٢ — ٢١٤
ابن حجر ١٩٣
ابن سيد الناس ٣٦٠
ابن سينا ٣٤٣

ابن سريج ١٢١
ابن شبرمة ٢١٣
ابن عائشة ٣٨٨
ابن عقيل ٢٥٣ — ٤٢٢
ابن الطقطقى ٤٣٧
ابن عباس ٢١٤—٢١٦—٢٢٦—٢٣١—٣٣١
ابن عمر ٢١٢ — ٢٣١ — ٢٤١
ابن الزبير ٢٢٦
ابن زكنون ١٩٨
ابن سماعه ٤٠٤
ابن طولون ٤٣٢
ابن حبان ٢٠٣
ابن حزم ٢٢٠ — ٢٣٧ — ٣٠٧
ابن عبد ربه ١٥٠
ابن شاهين ١٩٣
ابن تيمية ١٩٣ — ١٩٦ — ٢٢٠ — ٣١٨
ابن قتيبة ٣٧٥ وما بعدها
ابن قيم الجوزية ٢٣٤
ابن قدامة — ٣٠٩
ابن كلاب ٣٧٠
ابن عقيل ٣٠٩
ابن ماجة ٢٠١
ابن مقلة ٤٣٧
ابن رجب ٢٨٠
ابن مخلوف (زين الدين) — ٣١٩ — ٤٢٤
ابن المقفع ٣٤٧
ابن الهيثم ٣٤٤
ابن لهيعة ١٨٨
ابن ماسويه ٤٤٢
ابن المعتز ٤٣٦
ابن وهب ١٨٨
ابن هرمز ٢٤٤
ابن يونس الصفدى ٢٠٦
أبو أيوب ٦١ — ٢٢٦
أبو بكر الخلال ٢٠٩
أبو بكرة ٢٣١
أبو بكر الأشرم ٢٤٠
أبو بكر القطيعى ١٩٣
أبو بكر المروزى ٩٧ — ١٦١ — ٢٣١ — ٣٠٤
أبو جعفر الانبارى
أبو بكر البطائحى ١٢١
أبو بكر بن جحدر ١١٩
أبو العوام البزاز ٣٨١
أبو بكر بن أبى شيبة ٢٠٤
أبو دلف ٣٩٣
أبو بكر الجعابى ١٦٤
أبو الفتح الهروى ٣١٥
أبو بكر بن عياش ١٢٤
أبو تراب النخشبى ٥٧ — ٢٠٢
أبو تمام ٢٥ — ٢٨
أبو ثور ٦٨ — ١٧٢
أبو جعفر المنصور ١٨—٤٣٠
أبو الحسن الكرخى ٢٥٠
أبو سعيد الخدرى ٦١ — ٢٣١
أبو موسى الأشعرى ٢٣١
أبو الحسن بن أبى الورد ١٤١
أبو حامد الإسفرايينى ٢١٩
أبو حيان التوحيدى ٢١٩
أبو حسان الزيادى ٣٨١
أبو الحسن الأشعرى ٣٧١

أبو حمزة ١٢١
أبو حنيفة ٦٧ — ١٠٦
أبو الوفا بن عقيل ٢٧٧ — ٣٠٩ — ٣١٢
أبو خيثمة ٥٦ — ١٠٦
أبو داود ( سليمان بن الأشعث ) ٢٩١ — ٢٢٥
أبو داود الطيالسى ١١٩ — ١٥١
أبو زرعة الدمشقى ٣٠٦
أبو زرعة الرازى ٩٩ — ١٩٦ — ٣٠٦ — ٢٥١ — ٣٤٧
أبو زيد الانصارى ٦٢
أبو داود الطيالسى ٥٥
أبو سعيد البرادعى ٢١٩
أبو أحمد ابن خالة أحمد بن حنبل ٤٦١
أبو سليمان الجوحانى ١٦٤
أبو الأسود الدولى ٦٢
أبو حاتم الرازى ٦٠
أبو الدرداء ٦١ — ٩١ — ٢٣١
أبو زيد الأنصارى ٦٢
أبو طالب المكى ١٩٧
أبو القاسم القشيرى ٢١٥
أبو القاسم ابراهيم بن محمد ١١٩
أبو طالب المكى ١٢١
أبو العروق ٤٣٧
أبو الهذيل العلاف ٣٥٥
أبو نصر التمار ٣٨١
أبو عاصم النبيل ٥٥
أبو عبد الرحمن الشافعى ٤٥٤
أبو الوليد الباجى ٢٢٠
أبو عبيد القاسم بن سلام ١٨٩ — ٢٩٩
أبو هريرة ١٨٧
أبو عبيد عمرو بن مسعود ٢٢
أبو عبيدة بن الجراح ١٣٣ — ٢٣١
أبو الحسن بن رزقويه ١٩٣
أبو الفتح شخرف ١٢٢
ابن قتيبة الدنيورى ١٨٩
أبو على الدقاق ٢١٥
أبو القاسم النصر ابادى ٢١٥
أبو عبيدة معمر بن المثنى ٦٢
أبو العتاهية ١٤٩
أبو عثمان النهدى ٢٣٥
أبو عثمان المازى ٣١ — ٦٣
أبو عثمان محمد بن الشافعى ٦٩ — ١١٤ — ٣٠٦
أبو عمرو بن العلاء ٦٢
أبو عمرو الشيبانى ٦٣
أبو هاشم ٣٥٤
أبو الفرج الأصفهانى ٣٧٥
أبو محجن الثقفى ٢٣
أبو موسى الاشعرى ٣٢
أبو مسلم الخراسانى ١٨ — ٣٤٧
أبو مسلم الفراهيدى ٣١١
أبو معاوية الضرير ( محمد بن حازم ) ٥٤
أبو موسى المردار ٣٥٥
أبو معمر القطيعى ٢٢٢ — ٣٨١ — ٣٨٨
أبو نواس ٣٤٨
أبو هريرة ٥٩ — ٢٣١ — ٢٣٣
أبو يعقوب الشريطى ٥٧
أبو يعلى ١٢١
أبو يوسف ١٣ — ٤٧
أبو البسطامى ٢٥١

أبيّ بن كعب ٢٢٦
أحمد بن ابى دؤاد ٣٥٦ — ٣٧٤ وما بعدها
أحمد بن أبى الحوارى ٣٠٦
أحمد بن الدورقى ١٣٩
أحمد بن صالح ٣٠٠
أحمد بن سعد ٢٢٩
أحمد بن خالد ٣٧٤
أحمد بن سعيد الرباطى ١٤١ — ٤٥٠
أحمد بن نصر ٣٠٥ — ٣٧٢
أحمد بن الفرج ٣٠٣
أحمد بن سعيد الدارمى ١٠٢
أحمد بن هرون الشيبانى ٢٧
أحمد بن منيع ٦٠
أحمد بن المعذل ١٤٠
أحمد بن الحسن الترمذى ١٦٦
أحمد بن شجاع ٣٨١
أحمد بن يزيد ٢٧ — ٢٨
الأحنف ٩٧
الأخطل ٢٥ — ٣٣
الأخفش ٦٢
إدريس البهوتى المصرى ٣٥٣
آدم العسقلانى ٤٥٢
آدم متز ٣٥٥
أدريس بن جعفر ٣٢٧
أرسطو ٣٤٣
أريوس ٤٢٤
أسامة بن زيد ٢٢٦
أسبق ٤٣٣
استاذيس ١٨ — ٣٤٦
إسحق بن حنبل ١٤٢
إسحق بن راهوية ١٤١ — ١٩٧ — ٢٤٣
إسحق بن بهلول ١٠١
إسحق بن منصور ٢٤٧ — ٣٠٥ — ٣٤٤
إسحق بن إبراهيم ٣٧٩
إسحق بن موسى الأنصارى ١٣٩
أسد بن القرات ١٣٩
أسد بن يزيد ٢٧
إسماعيل بن أبى مسعود ٣٨١
أسماء بنت أبى بكر ٢٣١
أسماء بنت عيسى ٣٥٢
إسماعيل بن بلبل ٢٩
إسماعيل بن إسحق ١٤٠
إسماعيل بن علية ١٠٥ — ٣٨٣
إسماعيل بن جعفر ٣٥ ٣٥
الأشعث بن قيس ٤٧٠
إيتاخ ٣٩٥ — ٤٤٠
الأسود بن يزيد النخعى ٢١١
الأعمش ٢١١
الأشعث بن قيس
إشناس ٣٩٥
الأصمعى ٦٢ — ٦٤
آمنة الرملية ١٧٢
الأصفهانى ٢٠٣
أم شريك ٢٣١
الأصفهانى ٢٠٣
أم أيمن ٢٣١
أم يوسف ٢٣١
أم الدرداء ٢٣١
أفتيخوس ٤٢٤
الأمين ٧٨ — ٣٣٩

الاوزاعى ٢٤٣
الافشين ٣٣٩
أم حبيبة ( أم المؤمنين ) ٢٣١
أم سلمة أم المؤمنين ٢٣١
أم سلمة بنت محمد بن طلحة ٢٨
أم عمر بنت حسان ٣١١
أم العاصى بنت محمد ٣١١
أم عيسى بنت ابراهيم الحربى ٣١١
أم هانئ ( بنت الحسين الهوريني ) ٣١١
أمة الخالق بنت عبد اللطيف ٣١١
أمة العزيز بنت محمد الامباسى ٣١١
أمة الواحد ( بنت القاضى المحاملى ) ٣١١
أنس بن مالك ١٩٣
أيوب السختيانى ١٦٨
انكزاجوراس ٣٦٥ — ٤٠٨

( ب )

الباقر ٢٠٢ — ٢٤١
باغر ٣٩٥
بابك — ١٩ — ٣٤٩
بابيان ٤٥١
البخارى ٢٢٢ وما بعدها
بدر بن أبى بدر ١٢٢ — ٣٠٦
بترارك ٣٤٤
البخارى ١٩٣ — ١٩٩
البيهقى ٢٠٣ — ٣٩٢
بشر بن المعتمد ٣٥٦
البغوى ٣٧٠
بدر الدين لؤلؤ ٤٣٧
بشار بن برد ٤١ — ٣٤٦
بشر الحافى ٨٥ — ١٥٦
بشر بن الوليد ٢١٥ — ٣٣٨ — ٣٨١
بشر المريسى ٣٣٦ — ٣٤٠
بطليموس ٣٤٣
بغا ٣٩٥
بقى بن مخلد ١٩٩ — ٣٠٦
بقية بن الوليد ٤١٧
البريهاى ( محمد بن الحسن بن على ) ٣٦١
البربهارى ( على بن خلف ) ٤٥٦
بنى شاكر المنجم ٥١٥
البسوس ٣٠
بلال بن رياح ٤٠٧
البهوتى ٣١٢
بوران بنت الحسن ٨٢
بيرونى ٣٤٤ — ٣٤٧

( ت )

تاج الدين السبكى ٣١٩
تيودورا ٤٨٨
الترمذى ٢٠١
تميم الدارى ١٦٨
تقى الدين السبكى ٣٦٨

( ث )

ثمامة بن أشرس ٣٤٠ — ٣٧٤ — ٤٢٥
ثعلب ( أحمد بن يحيى ) ٤٠ — ٣٠٦
ثمل ٥٠٠

( ج )

جابر الجعفى ١٩٧
الجاحظ ٥١ — ٣٥٩ — ٣٧٥ وما بعدها

جرير بن عبد الحميد ٣٧ — ٥٤
جرير ٣٣
الجعد بن أبو درهم ٤٠٣
جابر بن عبد الله ٢٣١
جابر بن حيان تقديم ٧٣ — ٣٤٣
جبون ٤٢٧
جابر بن عبد الله ٥٨ — ٢٤٠
جاليليو ٤٠٨
جب ٣٤٤
جبائى ٣٧١
جساس بن مرة ٣٠
الجرجرائى ٤٤٩
الجزرى ١٩٨
جهم ٤٠٠
جعفر الصادق ٢١٢ — ٢١٣
جعفر بن مبشر ٣٥٥
جعفر بن حرب ٣٥٥
جعفر بن يحيى ٨١ — ٨٣
جعفر بن سليمان ٤٧٠
الجنيد بن محمد ١٢١ — ١٢٤
جويرية — أم المؤمنين ٢٣١
جوستنيان — تقديم
جوين ١٥٤
جوليان ٤٨٦
الجيلانى ٣١٢ وما بعدها
الجوينى ( امام الحرمين ) ٤٢١
جيزو ٣١٣
الحارث بن يمجد ١٣٩

( ح )

الحارث بن خالد بن العاص ٦٣
الحارث بن قيس ٢١٠
الحارث بن وعلة ٣٠
الحارث المحاسبى ١٧٠
الحارث بن عبد الله الاعور ٢١—٢١٠—١٦
حاتم الأصم ٩٩ — ٢١٥
الحاكم النيسابورى ١٩٨ — ٢٠٣
حامد بن الدورقى ٣٨١
الحجاج بن يوسف الثقفى ٣٢ — ٣٣
حبيش بن مبشر ٢٢٢
حذيفة بن اليمان ١٤٤
حسن البراز ١٢٤
الحسن البصرى ٩٧ — ١٣٥
الحسن بن عبد العزيز الجروى ١٦٢
الحسن بن زيادة اللؤلؤى ٣٣٧
الحسن بن على ١٥٠ — ١٥٤
الحسن العسكرى ٣٩٥
الحارث بن مسكين ٤٢٤
الحسين بن على ١٥١
حرب الكرمانى ٣٠٥
حسن — زوجة الامام ٥٢٩
الحسن بن سهل ٨٢
الحكم بن عينية ٣٦٢
الحلاج ٣٢١
حسين النجار ٣٧٥
حفص بن المغيرة ٢٢٦
حفص الفرد ٢٢٣
حفص بن غيلان ١٠٥
حفص بن غياث ١٤٠

حفصة أم المؤمنين ١٢٦
حفصة بنت سيرين ٢٣٥
حماد الدباس ٣١٥
حماد بن الزبرقان ٣٤٧
حماد بن دليل ( أبو زيد ) ٢١٤٠
حماد بن يونس ٣٤٧
حماد بن أبي سليمان ٢١١
حماد عجرد ٣٤٧
حمدان ٣٠٦
حنبل بن هلال ٢٠
حنبل بن اسحق ٣٠٣ — ٣٦٤
حولاء بنت تويث ٢٣١
حوفزان ٣٠

( خ )

خالد بن أمية ١٤٠
خالد بن أبو اليد ٢١ — ٨٥
خباب ٣٩٦ — ٤٠٠
خبيب بن عدى ٤٠٧
الخطيب البغدادى ٢٠٣
الخليل بن أحمد ٦٢ — ٣٤٧
خالد بن يزيد بن مزيد ٢٨ — ٣٩٣
خمارويه ٤٤٢
خديجة أم محمد ٣١٠
خديجة بنت أبي الحسن الملقن ٣١١
الخرقى = ( الحسين ) ٣٠٨
= عمر بن الحسين ٣٠٨
الخلدية بنت جعفر ٣١١
خشيش بن أصرم ٣٦١
خلف بن هشام ٥٦ — ١٠٦
خوارزمى ٧٣ — ٣٤٣

( د )

داود الطائى ١٥١ — ٢١٥
الدارقطنى ١٩٢
دانت ٣٤٤
دغفل بن حنظلة ٣١ — ٦٤
دفلديانوس ٤١٩
ديماس ( أسكندر ) ١٦٩
ديجول ٤٣٣
دسقورس ٤٢٥

( ذ )

ذهل بن ثعلبة ٢٩
الذهبى ٣٦٨ — ٣٦٩
ذو النون المصرى ٨٨ — ٣٥١
الذيال بن الهيثم ٣٨١

( ر )

رابعة العدوية ١٢٧
الراضى ٤٣٧
الربيع ٢٤
ربيعة بن عبد الرحمن ١٨٢ — ٣٥٠
الربيع ٣٩٢
روجير بيكرين — تقديم
الرخجى ٤٤٩
روح بن زنباع ٣٢
الرشيد ٢٥ — ٢٦ — ٢٧
ريحانة ٣٠٩ — ٤٦٠ ٧٣ وما بعدها
رامهرمزى ٢٠٣

( ز )

الزبيدى ٣٦٧
الزبير بن العوام ٣٢ — ١٦٦

الزعفرانى ٦٨ — ١٥٦
الزمخشرى ٤٠٠
الزهرى ١٨٢ — ١٨٣
زيد بن على ١٦٦
زينب (أم على بنت أحمد بن حنبل) ١٤٢
زوفر ٢٤٣
زرادشت ٣٤٧
الزهرى ٥٩
زونجلى ٤٢٦
زلزل ٧٥
زهير بن صالح ٩٩ — ٣٠٦ — ٤٦٤
زينب (أم على) ٤٦٤
زينب بنت أم سلمة ٢٣١
زينب بنت جحش أم المؤمنين ١٣٤
زيد بن ثابت ٢٣١
زيد بن أرقم ١٨٦
زيد بن علاقة ٦٧

(س)

سان بيف ٤٣١
سالم بن عبد الله ٥٩ — ٩٤ — ٤٠٧
سحيم بن حفص ٦٤
السرى بن منصور السقطى ١٢١ — ١٢٤ — ١٤٧ — ٢١٥
سلمة بن دينار (أبو حازم) ١٣٥
سجادة ٣٨٦
السيد الحميرى ٣٤٧
سرفانتس ٣٤٤
السرخسى ٤٠٧
سعد بن أبى وقاص ٢٢ — ٩٧
سليمان بن بسار ٤٠٧
سعد بن عامر ١٤٤
سعدوية ٣٨١
سعيد بن زيد ٢٣١
سعيد بن الصباح ٣٥
سعيد بن المسيب ٥٩ — ١٨٢ — ٤٠٧
سعيد بن جبير ٢١٠ — ٢١٤
سعيد بن أبى عروبة ١٢٦
سعيد بن بشر ١٥٠
السفاح ٢٤
سفيان الثورى ٨٤ — ٩٣ — ١١٥
سفيان بن عيينة ٦٧ — ١١٦
سفيان بن مجاشع ٣٤٧
سقراط ٣٩٨
سلمى بنت أبى حفصة ٢٣
سلام الابرش ٤٤١
سلمان الفارسى ١٤٤ — ٢٣١
سلم الخاسر ٣٤٧
سلمان بن داود الهاشمى ٦٨ — ٧٢
سليمان بن عبد الملك ٤٥٢
سليمان بن عتر التجيبى ١٦٨
سليمان السجستانى بن الأشعث (أبو داود)
سليمان بن هشام بن عبد الملك ٣٤ — ٤٢٣
سليمان بن حرب ٥٥ — ٥٦
سيبويه ٦٢
السيوطى ١٩٨ — ٢٤٣ — ٣١٢
سينيكا ٤٥١

(ش)

شارل الخامس ٤٢٧
الشبلى ٢١٥
الشاطبى ٣٠٧ — ٣١٧

الشافعي ٤٣ – ٤٦ – ٦٥ وما بعدها
الشعبي ٢١٠ – ٢١١
شجاع ٤٣٠
شعيب بن شيبة ٤٣١
شقيق البلخي ٨٥
شبيب الخارجي ٣٣
شخرف ١٢٢
شراحيل بن معن ٢٧
شريح ١٨٢ – ٢١٠
شعبة بن الحجاج ٢٠٣ – ٢٤١
شفيق البلخي ٢١٥
شعبويه ٤٥٤
الشعبي ١٩٤
شهدة الكاتبة ٣١١
شكسبير ٤٧١
شيبان
شيبان بن ثعلبة ٢٩
شيبان بن ذهل ٢٢
شناد ١٨ – ٣٤٦

(ص)

الصاحب بن عباد ٣٥٩
صالح بن أحمد بن حنبل ١٤٢ – ٣٠٦
صالح بن عبد القدوس ٣٤٧
الصدفي ٣١٠
صفوان بن اميه ٥٢
صفية أم المؤمنين ٢٣١
صفية بنت ميمونة ٢٩ – ٣٥
صفية بنت ثعلبة – ٣٠
صلاح الدين ٣١٣

(ض)

الضحاك بن قيس ٢٨ – ٢٢٦

(ط)

طاهر بن الحسين ٨٠ – ٣٤٩
الطبري ٤٧ – ٢٣٧ – ٤٥٤
طارق بن زياد ٣٤١
طلحة ٣٢ – ٣٣٥
الطحاوي ١٠٢ – ٤٥٥
الطرفي الحنبلي ٢٨٩
الظاهر بيبرس ٤٣٣

(ع)

عائشة أم المؤمنين ١٠١ – ٢٣١
العرباض بن سارية ٣٥٠
العباسة بن المهدي ٨١
العباسة بنت الفضل ٣٠٩ – ٤٦٠
العباس بن المأمون ٣٩٦
عبد الأعلى بن مسهر ٣٨٧
عبد الحليم بن تيمية ٣١٨
عبد السلام بن تيمية ٣١٨
العرقي ١٤٤
العلاء الحضرمي ١٢ – ٤٣
عاصم بن علي بن عاصم ٣٨١
عبادة بن الصامت ١٣٤ – ٢٣١
عبادة المخنث ٣٧٢
عبيدة السلماني ٢١٠
عبد الرحمن بن اسحق ٣٠١
عبد الرحمن بن أبي ليلى ٢٤١
عز الدين بن عبد السلام ٣١٦ – ٣١٩
عبد الرحمن بن مهدي ٥٥ – ١٩٦

عبد الرحمن بن يزيد النخعى ٢١١
عبد الرحمن بن عوف ٦٤ — ١٣٣
عبد الرحمن بن اسحق ٣٨١ — ٤٠١
عبد الرزاق بن همام ٥٩
عبد العزيز آل سعود ٣٢٦
عبد العزيز بن أبى سلمه ٢٤٤
عبد العزيز الجروى ١٦٢
عبد الغنى بن سعيد ٢٠٣
عبد الكريم بن أبى العوجاء ١٨٤
عبد العريز بن برقوق ٤٣٣
عبد الله بن أحمد بن حنبل ١٤٢
عبد الله بن جعفر ٢٧٣
عبد الله بن المبارك ٩٣ — ١٥٣ — ١٨٨ — ٢١٨
عبد الله بن ذكوان ( بو الزناد ) ١٨٣
عبد الله بن طاهر ١٤١
عبد الله بن عمر بن عبد العزيز ٣٤
عبد الله بن حنبل ٣٥
عبد الله بن ادريس ١٤٠ — ٣٣٤
عبد الله بن مسعود ٢١٠
عبد الله بن الفتح بن خاقان ٣٠٦
عبد الرحمن بن الفتح بن خاقان ٣٠٦
عبد الله بن أحمد بن حنبل ٣٠٧
عبد الله بن عبد الحميد الميمونى ٣٠٣
عبد الله بن موسى العبسى ١٦٥
عبد الله بن محمد بن اسحق الأزدى ٤١٠
عبد الله بن مسعود ١٨٢
عبد الله بن وهب ٣٠١
عبيد الله بن المهدى ٢٧
عبد الملك بن عمير الليثى ٤٢٣
عبيد الله بن زناد ٤٢٣
عبد الملك بن سوادة الشيبانى ٢٩
عبد الملك بن عبد الحميد ٦٨ — ٣٠٥
عبد الملك بن مروطن ٤٢٣
عبد الملك بن عمير الليثى ٤٨٤
عبد الملك بن مروان ٣٠٢
عبد الوهاب الوراق ١٤٨ — ٢٢٤ — ٣٠٤
عبد الواحد بن محمد ٣١١
عبد المنعم بن ادريس ٣٨٣
عبيد الله بن محمد بن الحسن ٣٨٣
عتاب بن أسيد ١٤٠
عثمان بن وصيلة ٣٤
عجيف ٤٤٠
عدين بن حاتم ٢١
عروة بن الزبير ٢١٣ — ٤٠٧
عفان بن مسلم الصفار ٥٤
عكرمة بن أبى جهل ٢٠٣
علقمة بن قيس النخعى ٢١٠
على بن محمد البوتيى ١٩٣
على بن المدينى ٦٠ — ٤٠٣ — ٤١٣
على بن أبى مقاتل ٣٨١
على بن بندار ١٣١
على بن عبد الله الطيالسى ١٧١
على بن الجهم ٤٤٥
على بن موسى ( الرضى ) ١١٨ — ٢١٨ — ٣٣٩ — ٣٨٥
علويه ٣٣٨
علية بنت المهدى ٧٨
عمار بن ياسر ٤٠٧
عمر بن الحسين الخرقى ( بو القاسم ) ١٢٦

عمر بن أخت المؤيد ٣٤٨
عمر بن قيس الملائى ٥٣
عمر بن حبيب ٢٣٢
عمير بن سعيد ١٢٤
عمرة بنت عبد الرحمن ٢٣٥
عمرو بن معديكرب ٢٢ — ٢١٠
عمرو بن ثعلبة ٣٠
عمرو بن عبيد ١١١ — ٥٤٠
عمر بن عبد العزيز ٩٤ — ١٣٩ — ٢٣٣
عمران بن الحصاص ١٤٣
عمران بن حصين ٢٣١
عمران بن حطان ٣١ — ٣٢
عمرو بن العاص ٣٢ — ١٥٩
عمرو بن دينار ٦٧ — ١٩٤
عنان الناطفية ٨٠
عوف بن على ٣٠
عيسى بن جعفر ٢٧٦
عياض ٣١٩

( غ )

الغزالى ١٢١ — ١٨٥ — ٢١٩ — ٣٦٥
غزالة زوج شبيب ٣٣
غلام خليل ٤٥٥

( ف )

الفارابى ٣٤٣
الفتح الموصلى ١٢٣
الفتح بن أبى الفتح ٣٠٦
فثيون ٣٧٠
فردريك الثانى ٣٤٣
فرقد السنجى ١٢٤
الفرزدق ٣٣
فرنسيس بيكون — تقديم
الفصل بن الربيع ٣٣٧
الفضيل بن عياض ٦٧ — ٧٣ — ٩٤
الفضل بن دكين ٥٤
الفضل بن الربيع ٣٣٧
الفضل بن سهل ٣٣٩
الفضل بن غانم ٣٨٨
فوران ( عبد الله المهاجر ) ٣٠٦
الفضل بن الفرخان ٣٨٦
فاطمة الزهراء ٢٣١
فاطمة بنت قيس ٢٢٦
فاطمة النيسابورية ٣١١
فاطمة بنت المنذر ٦٥
فاطمة بنت على اليسير ٣١١
فاطمة بنت هلال ٣١١
فرات بن حيان ٢٢
فيليب المقدونى ٤٣٩
فيليب المقدونى ٤٣٩
فولتير ٣٩٥
فريدة ٤٣٦

( ق )

قبيحة ٤٣٠
شبيب ٢٣
قحطبة بن شبيب ٢٣
قدامة بن مظعون ٢١٥
القعقاع بن سور ٣٠
قتيبة بن سعيد ٥٦ — ٣٤١

قطر الندى ٢١٩
القدورى ٢١٩
قيسى بن أبى حازم ٢٣٥ — ٤٠٣
قيس بن مسعود ٢٣
قيس بن عاصم المنقرى ٢١
القعنبى ٢٤٣
قتادة ١٨٥
قطرب ١٨٩
القوارىرى ٣٨١
قسطنطين ٤٢٥
القرافى ٢٨٩
قراطيس ٤٣٠
قيصر — تقديم

( ك )

كالا ٣٩٥
كثير ٩٥
كراكلا ٤٥١
كارليل ٤٧١
كريتون ٤٥٤
كريمة بنت أحمد المروزى ٣١١
الكلواذى ١٠٣
كمالية — ٣١١
كسرى يزدجرد ٢٣
كسرى ابرويز ٣٠
كرابيسى ٦٨ — ٢٢٣
كليب بن ربيعة ٢٢
الكندى ٧٣
كوبرنكس ٣٤٤

( ل )

لافال ٤٣٥
لوثر ٤٢٦
لاوست — تقديم ٢٩٥
ليلى بنت قانف ٢٣١
الليث بن سعد ١٦٩ — ٢٤٣
لويس بارتو ١٦٩
لويس الرابع عشر ٣٤٤
ليث بن طاوس ٤٦٩

( م )

مارك أوريل ٣٩٢
مارشيا نوس ٤٢٥
المأمون ٥٢ — ٢١٨ — ٣٣٣ وما بعدها
مالك بن أنس ٥١ — ٦٦ — ٧١ — ١٣٩
ماردة ٧٨
المتوكل ٧٨ — ١٦٦ — ٤١٥
المبرد ٣٠٥ — ٤٢٩
مالك بن دينار ١٤٨ — ١٦٨
المثنى بن حارثة ٢١ — ٢٢ — ٢٩
مجاهد بن جبر ١٩٤
محارب بن دثار ٣١
محمد بن عثمان بن أبى شيبة ٢٢٧
محمد بن ابراهيم بن معصعب ٤٠٤
محمد بن ابراهيم بن دينار ٢٤٤
محمد بن اسحق ٦٤ — ٦٥
محمد بن حبيب ٣١
محمد بن الحسن ٤٩
محمد بن حنبل ١٧ — ١٩ — ٢٩
محمد بن حاتم ٣٨١

محمد بن سعد كاتب الواقدى ٦٥
محمد بن سماعة ٢١٤
محمد بن شجاع الثلجى ١٤١
محمد بن عبد الوهاب ٣٢٣
محمد بن عبد الملك الزيات ٣٥٩ — ٣٧٦
محمد بن كرام ٣٢٢
محمد بن سالم ٣٢٢
محمد بن عمر الرخجى ٥١٥
محمد بن عجلان ٧١
محمد بن نوح ٣٨١
محمد بن عمر الواقدى ٦٥
محمد بن عبد الله بن طاهر ٤٧٠
محمد بن مسلم بن وارة ٧٠
محمد بن مسلمة ٩٧
محمد بن معاوية ١٠٢
محمد بن منصور بن داود ٣٠٦
محمد بن عبد الله بن الحسن ١٦٦
محمد بن احمد بن أبى دؤاد ٤٣٨
محمد بن عبد الرحمن الضبعى ٢٣٥
محمد بن الحنفية ٣٥٤
محمد بن واسع ١٢٦ — ١٦٦
مخارق ٤٣٠
المختار بن عبيد ٤٢٣
محمود بن سبكتكين ٢١٩
محيى الدين بن عربى ٣٢٢
مراجل ٨٠ — ٤٩٢
مروان بن أبى حفصة ٢٤ — ٢٦
مروان بن محمد ١٨ — ٢٨
مردانشاه ٢٢
المرغنيانى ٣٢٥
مزدك ٣٤٧
مزدلف ٣٠
المزنى ٢٤٤ — ٤١٤
مسروق ٢١٠ — ٢٣١
المستعين ٤٣٦
المستعصم ٤٣٧
مسرور ٨٣
مسلمة بن مخلد ٦١
مسعود بن حارثة الشيبانى ٢٢
مسلم بن الحجاج ١٩٣ — ٢٠٠
مصعب بن الزبير ٤٢٣
مضغة ومخة اختا بشر الحافى ٣٥١
مطين الحضرمى ٢٠٣
المعنى بن حارثة الشيبانى ٢٢
مطرف ٢٤٤
المظفر بن مرجى ٤٨٣
معاذ بن جبل ٢٣١
معاذ العنبرى ١٥٣
معاوية بن أبى سفيان ٣٢ — ١٨٢
معاوية بن يسار ٣٤٦
المعتضد ٣٤٦
مقاتل بن سليمان ٤٠٠
المعتصم ٧٨ — ١٠٩ — ٣٣٣ وما بعدها
المعتمد ٢٩
المقتدر ٤٣٦
معروف الكرخى ٨٥ — ١١٨ — ٢١٥
معن بن زائدة الشيبانى ٢٤ — ٢٦
المغيرة بن شعبة ٢٢ — ١٤٧
المقدمى ٨٤
ملبد بن حرملة ٢٨

مؤرج بن عمر وابو فيد السدوسى
٣١ — ٦٢
منصور البطائحى ١٥٠
محمد بن الحسن ١٨٣ — ٢٠٩
محمد بن عثمان بن شيبة ٢٠٣
محمد بن مسعود ٣٢٦
معيد الجهنى ٣٥٩
المقنع الخراسانى ١٩
منصور بن عمار ٣٥٠
مهنا بن يحيى الشامى ١٩٧ — ٣٠٥
المهدى ١٩ — ٢٥
مهتدى بالله ٤١٠
موسى بن حزام ١٦٤
موسى بن نصير ٣٤١
موسى بن عبد الله بن الحسن ٢٨
ميمون بن مهران ١٤٨
ميمونة بنت الأقرع ٣١١
موس الكاظم ٣٩٥

( ن )

النظام ٣٥٥ — ٣٧٤
نابليون — تقديم
نافع ٦٤ — ٢٤١
نجم الدين الطوفى ١٣٠
نجيد الترمدى ١٢٠
نزار ٢٩
نسطور ٤٢٤
النسائى ١٩٠ — ٢٠١
نصر بن سيار ٢٤ — ٤٢٩
نصر بن على ١٤٠
النضر بن شميل ٦٢ — ١٨٩ ٣٨٠
النعمان بن بشير ٣٢
نعمان بن مقرن ٢٢
نعيم بن حماد ٥١
نشوان بنت عبد الله ٣١١
النعمان بن المنذر ٣٠
نعمان بن بشير ٣٢
نوح بن مريم ١٨٥
نيرون ٤٥١

( هـ )

هانئ بن مسعود ٣٠
الهادى ٧٦
هرون الحمال ١٠٢
هشام بن عبد الملك ١٥٠ — ١٨٨
هشام بن محمد الكلبى ٦٤
هشام بن عروة ٦٥ — ٢١٣
هشام بن الحكم ١٠٥
هشيم الواسطى ٥١
هند بنت عتبة ٤٠٦
هولاكو ٤٤٧ — ٥٠٩
هند بنت النعمان بن بشير ٣٢
هنرى روبير ١٦٩
الهيثم بن عدى ١٨٤
هيجو ٣٤٤ — ٤٢١
هيلانة ٧٨

( و )

الواثق ١٥٣ — ٣٧١
واصل بن عطاء ٣٥٤

وحشي ٤٠٦
وائلة بن الأسقع ١٩٤
وكيع بن الجراح ٥٢ — ٥٣ — ٦٧ — ٢٤٤
الوليد بن عبد الملك ٤٠٦
الوليد بن طريف ٢٧

( ى )

يحيى بن ادم ٣٥
يحيى بن أكثم ٥٢ — ١٤١ — ٢١٨
يحيى بن أبي بكير ١١١
يحيى بن خاقان ٤٤١ — ٤٤٤
يحيى بن خالد بن برمك ٤٢ — ٨٣ — ١٠٥
يحيى بن معاذ ٥٨
يحيى بن كثير ٥٨
يحيى بن سعيد ٥٢ — ٦٧ — ٢٠٢ — ٣٠٣
يحيى بن معين ٥٧ — ٥٨ — ٦٧ — ١٠٠ — ١٧٢ — ٣٨١ وما بعدها
يزيد بن أبي مالك ١٣٩
يزيد بن ذريع ٥٢ — ٥٣
يزيد بن معاوية ١٦٥
يزيد بن مزيد الشيباني ٢٦ — ٦٧
يزيد بن هارون ٥٢ — ٢١٨ — ٣٧٣
يحيى بن يعمر ٣٥٨
يحيى بن عبد الرحمن العمري ٣٨١
اليزيدي ٣٣٣
يعقوب بن اسحق ٦٨ — ٣٠٦
يوسف بن اسباط ١٣٠
يوسف البرم ٢٦
يونس بن عبيد ١٢٦
يوسف بن عبد البر ٢٠٣
يوسف بن يحيى البويطي ٣٩٨